أنوار التأويل
دراسة تحليلية فى النصوص القرآنية
لبيان نطاق التأويل بين علم الأصول وعلم التفسير

دكتور/ محمد سعيد فرماوي

الأستاذ المساعد

جامعة الملك فيصل

قال الله تعالى في كتابه العزيز:

" هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٧﴾

(آل عمران ٧)

" ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٣٥﴾ "

(النور ٣٥)

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، الذى أنزل القرآن هدى ورحمة للمؤمنين، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين، سيدنا محمد بن عبد الله، الذى أرسله الله رحمة للعالمين، الذى من أنواره يقتبس العلماء الوارثين قبسات، بها تعرف أنوار وأسرار آيات الذكر الحكيم، للوقوف على منازلها من التأويل، اللهم صل وسلم عليه، وعلى آله الأطهار وصحبه الأخيار، فى كل وقت وحين، صلاة وسلاما دائمين بدوام الله العظيم.

ثم أما بعد.......

أنزل الله القرآن على قلب نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم، ليخرج الله به الناس من ظلمات الكفر والجهل إلى أنوار الإيمان والعلم، وقد تضمنت آياته المباركات الأحكام والعظات، والقصص والأنباء، والوعد والوعيد، والترهيب والترغيب، ووصفه الله تعالى بالحكيم إذ يقول عز من قال: " الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١ " (يونس ١)، وقوله تعالى " الٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ " (لقمان ١، ٢) و قوله تعالى: " يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ " (يس ١، ٢)، وحكمة القرآن تقتضى، أن كل آية أنزلها الله تعالى لها مقصد أو حكمة معينة فى مرماها، سواء ما يخص معناها أو يخص مبناها، وحكمة القرآن كذلك تقتضى، أن كل آية لها فى ذاتها معنى مراد لله تعالى، أى تأويل يعلمه الله عز وجل، ويُعَلِّمَهُ لمن شاء من عباده الراسخون فى العلم، أي أن كل آية من آيات القرآن لها منزل خاص بها من البيان والتأويل، ولكن كيف ؟

إشكالية البحث:

يرى الناظر فى آيات الذكر الحكيم، أنها قد تكون موردا لتأويل المفسرين، وقد تكون موردا لتأويل الأصوليين، وقد تكون موردا لهما معا فى آن واحد، فما هى تلك الآيات ؟ وكيف يمكن معرفة منزلها من التأويل ؟ هل هو منزل تأويل الأصوليين ؟ أم هو منزل تأويل المفسرين ؟ أم منزلهما معا ؟ وإن كان منزلهما معا، فهل لكل منزل نطاق لا يتعداه النطاق الآخر ؟ أم يتداخلان ؟ ثم كيف يمكن الترجيح بينهما إذا تعارض التأويلان ؟ حيث لا يتفق تأويل المفسرين وتأويل الأصوليين على الدوام . ([1])

---

[1]) تعددت ألوان التفسير على مر العصور، من تفسير بالمأثور، أي ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته رضوان الله عليهم، إلى تفسير بالرأي – أي بالاجتهاد – بين مؤيد ومعارض، إلى تفسير إشاري، تميز به أرباب=

=السلوك وأهل الحقائق من الصوفية، إلى تفسير علمي، يقوم على محاولة عزو آيات القرآن إلى بعض العلوم. وتبعا لذلك التعدد، تعددت التأويلات لكثير من نصوص القرآن، بل إن داخل كل اتجاه من تلك الاتجاهات نجد أكثر من تأويل لذات النص القرآني. وقد فاق التفسير الإشاري – أو بالأحرى التأويل الإشاري – كل تلك الألوان في التغلغل في أعماق النصوص، مما دفع البعض إلى وضع شروط وضوابط لقبول هذا النوع من التأويل.

في تفصيل ذلك جميعا ، الدكتور / محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون ، دار الحديث، القاهرة، ط ١٤٣٣ هـ، ج١، ص ١٢٧، ١٣٧، ٢٢١، ج٢ ص ٢٩٥ ، ص ٤١٧ .

وإن كان الاختلاف في التأويل، بين تلك الاتجاهات، أمر وارد، فانه ومن باب أولى، الاختلاف بينها وبين تأويل الأصوليين – وفقا لقواعد علم الأصول – أكثر ورودا . خاصة بين التفسير أو التأويل الإشاري، وبين التأويل الأصولي.

وسوف نعرض مثالين على تأويل المفسرين، يخالف ما يتقضيه تأويل الأصوليين، من اتباع قواعد علم الأصول اللغوية، حتى تتضح إشكالية البحث وضوحا لا غموض فيه.

المثال الأول: أخرج البخاري في صحيحه : " قال عمر، رضي الله عنه، يوما لإصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فيم ترون هذه الآية نزلت " أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ " (البقرة ٢٦٦)، قالوا الله أعلم، فغضب عمر فقال: قواوا نعلم أو لا نعلم.

فقال ابن عباس: في نفسي منها شئ يا أمير المؤمنين . قال عمر: يا ابن أخي قل ولا تحقر نفسك. قال ابن عباس: ضربت مثلا لعمل ، قال عمر: أي عمل ؟ قال ابن عباس: لعمل. قال عمر لرجل غني يعمل بطاعة الله عز وجل، ثم بعث الله له الشيطان، فعمل بالمعاصي، حتى أغرق أعماله . "

أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري،، صحيح البخاري، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط ١٤٣١ هـ، كتاب تفسير القرآن ، رقم الحديث ٤٥٣٨، ص ٦٢٧.

وجاء في فتح الباري: أن ابن المنذر أخرج الحديث من وجه آخر ، عن أبي مليكة، وعنده بعد قوله أي عمل ؟ قال ابن عباس: **شئ ألقي في روعي**، فقال صدقت يا ابن أخي. ولابن جرير من وجه آخر عن ابن أبي مليكة عنى بالعمل : – يقصد بيان مراد ابن عباس من قوله: لعمل – أن ابن آدم أفقر ما يكون إلى جنته إذا كبر سنه وكثر عياله، وابن آدم أفقر ما يكون إلى عمله يوم يبعث، قال صدقت يا أخي .

ولابن جرير من وجه آخر عن ابن أبي مليكة عن عمر قال: هذا مثل ضرب للإنسان يعمل صالحا حتى إذا كان عند آخر عمره أحوج ما يكون إلى العمل الصالح، عمل عمل السوء .

أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تحقيق شعيب الأرنؤوط، وعادل مرشد، دار الرسالة العالمية، دمشق، ج١٣، ط١، ١٤٣٤ هـ، ص ٩٥، ٩٦.

وقد أورد الحديث السيوطي في الإتقان، وهو بصدد الحديث عن تفسير الصحابة، ولكن نسب القول لابن عباس وليس عمر – رضي الله عنهما – حيث قال: قال: ابن عباس: " لرجل يعمل بطاعة الله عز وجل، ثم بعث الله له الشيطان، فعمل بالمعاصي، حتى أغرق أعماله "

جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ١٤٢٩، ص ٩٩٣.

وقد أورد القرطبي أقوال عدة للمفسرين منها: أن الطبري حكى عن السدي أن الآية مثل آخر لنفقة الرياء، ثم قال القرطبي: وروي عن ابن عباس أنه قال: هذا مثل ضربه الله للمرائين بالإعمال يبطلها يوم القيامة أحوج ما يكون إليها ، كمثل رجل كانت له جنة وله أطفال لا ينفعونه فكبر وأصاب الجنة إعصار أي ريح عاصف فيه نار فاحترقت، ففقدها أحوج ما كان=

=إليها. كما أورد قول عمر آنف الذكر: " هذا مثل ضرب للإنسان يعمل صالحا حتى إذا كان عند آخر عمره أحوج ما يكون إلى العمل الصالح، عمل عمل السوء "، **وذكر قول ابن عطية**: أن هذا نظر يحمل الآية على كل ما يدخل تحت ألفاظها – ويبدو أنه يقصد تأويل عمر للآية – ثم قال القرطبي: وبنحو ذلك قال: مجاهد وقتادة والربيع وغيرهم. وقد ذكر القرطبي نفس قول ابن عباس الذي ذكره السيوطي.

أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق د. عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٣٠،ج١، المجلد الثاني، ص ٢٠٩، ٢١٠.

وذكر البغوي في تفسيره قول ابن عباس أن الآية مثل في عمل المرائي، كما ذكر قول عمر آنف الذكر.

أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، تفسير البغوي (معالم التنزيل)، دار ابن حزم، بيروت، ١٤٢٣، ص ١٦٩.

وقال الزمخشري : أنه مثل لحسرة المرائي، إذ كان يوم القيامة، وحسرته كحسرة من هلكت جنته، بعد أن طعن في السن، وله ذرية ضعاف – أي لا يستطيعون إعانته، مما يزيد في حسرته – وقال: قال الحسن رضي الله عنه: أنه مثل لشيخ كبير ضعف جسمه وكثر عياله، وصار أفقر ما يكون لجنته، كذلك العبد إذا انقطعت عنه الدنيا أفقر ما يكون إلى عمله .

البين من أقوال المفسرين أنها توافق ما قاله ابن عباس، أو ما قاله عمر إلا قول الحسن. وهذا اتباع منهم للمأثور من قول الصحابة، على الرغم أن ظاهر الآية لا يدل على أنه مثل للمرائي بعمله، أو أنه مثل لمن ختم حياته بعمل السوء بعد عمله الصالح، فكل تأويل يختلف عن الآخر . وقول الحسن تأويل ثالث.

ولي فيها قول رابع: أن الآية تحذير لمن يكنز ولا يتصدق ولا ينفق في سبيل الله، فقد يفتقر يوما وتهلك أمواله، ويكون أحوج ما يكون للصدقة، فمن قدم خيرا وجده، وهو مناسب للآية قبلها والآية بعدها، فالآية قبلها حث على الانفاق وتبشير بمثوبة المنفق المضاعفة، والآية بعدها حث على الانفاق من طيب الكسب، فكان مناسب بعد الحث على الانفاق، التحذير من عدمه، ثم الحث أن يكون الانفاق من الطيب الحلال، وليس من الردئ الحرام .

وهذا الذي نقوله لا يخفى على حبر الأمة وترجمان القرآن ، أو على الفاروق عمر، ولا تفسير لقولهما إلا أن يكون إلهاما أو إشارة قذفت في قلبيهما فقال ما قالاه ، فعدلت بهما عن ظاهر الآية، ومناسبتها لما قبلها وما بعدها ، إلى ما قالاه: من أنه مثل للمرائي أو مثل لمن بدأحياته بالطاعات، واختتمها بالمعاصي والمنكرات ، فالآية ليس فيها البتة ما يشير إلى نفقة الرياء أو بداية الحياة بالطاعة وختمها بالمعاصي.

وقد أورد ابن حجر العسقلاني ما يدل على أنها إشارة نورانية قذفت في روع ابن عباس، حيث قال: " أن ابن المنذر أخرج الحديث من وجه آخر ، عن أبي مليكة، وعنده بعد قوله أي عمل ؟ قال ابن عباس: **شئ ألقي في روعي**، فقال صدقت يا ابن أخي. " ذكر آنفا في ذات الحاشية. والملاحظ أن عمر في تلك الرواية صدق قول ابن عباس. ولم يخرج جمهور المفسرين عن قوليهما ، لالتزامهم باتباع المأثور.

مفاد القول أن التأويل قد يتعدد لذات الآية، بل وقد لايخضع لما يظهر من معاني ألفاظها، وتقره قواعد اللغة، فقد يتعدى التأويل إلى أفق بعيدة، ولكنها قريبة من العلماء بقربهم من الله تعالى، حيث يقذف في قلوبهم إشارات نورانية ومعارف إلهامية، يشرق معه نور تأويلهم لآي القرآن. عندها يثور السؤال: كيف نعرف منزل الآية ؟ ! هل هو منزل تأويل الأصوليين، واتباعهم لقواعد الأصول اللغوية وغيرها، أم منزل تأويل المفسرين بمشاربهم واتجاهاتهم، الرحبة المتعددة ، خاصة التأويل الإشاري. حول هذا يهدف ويدور البحث.

المثال الثاني: أخرج البخاري أن عمرا سأل ابن عباس عن هذه الآية:

إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝

فقال: أجل رسول الله أعلمه إياه، فقال: ما أعلم منها إلا ما تعلم. =

=صحيح البخاري، مرجع سابق، كتاب المغازي، حديث رقم ٤٤٣٠ ، ص ٦١٣ .
وقد أورد القرطبي في تفسيره ، أن بعضا من أهل بدر قالوا – ردا على سؤال عمر عن الآية – : أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم إذا فتح عليه أن يستغفره، وأن يتوب إليه، فقال عمر: ما تقول يا ابن عباس ؟ قال : ليس كذلك، ولكن أخبر الله نبيه صلى الله عليه وسلم، **حضور أجله**، فقال: " إذا جاء نصر الله والفتح **فذلك علامة موتك** ، " فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا " ، فقال عمر: تلومونني عليه . القرطبي، مرجع سابق، ج٣، المجلد العاشر، ص ٣٣٨.
وقد أخرجه البخاري بلفظ قريب جدا من هذا اللفظ، حيث قال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم ، ولم تذكر عبارة تلومونني عليه، مرجع سابق، كتاب المغازي، حديث رقم ٤٢٩٤، ص ٥٩٣. وقد أورد ذات الحديث السيوطي، مرجع سابق، ج٢، ص ٢٩٢، ٢٩٣.

التعقيب على تأويل ابن عباس، وتفسير بعض أهل بدر:

أما تفسير بعض أهل بدر الحاضرين لمجلس عمر، رضي الله عنهم، فهو تفسير ظاهرها، وفقا لما تقتضيه لغة العرب، أما تأويل ابن عباس وموافقة عمر له – رضي الله عنهما، فهو تأويل لا تقتضيه قواعد اللغة، بل لا يقتضيه تدبر أو تأويل قريب لمعانيها، بل هو تأويل بعيد، أو بالأحرى تأويل إشاري، أي أنوار يقذفها الله تعالى في قلوب من يشاء من عباده العلماء، عند تدبرهم في آي القرآن.
والجدير بالذكر ان هذا التأويل الإشاري ليس تأويلا لابن عباس وحده، بل ولعمر أيضا، لأنه قال: ما أعلم منها إلا ما تعلم .
والذي دفع عمر – على ما أرى – لهذا السؤال، هو رغبته في أن يتأكد من أن الإشارة النورانية التي قذفت في قلبه حول الآية، هي إشارة صادقة، لكون ظاهر الآية واضح لكل من عرف لغة العرب، فما بال أهل الفصاحة والبلاغة منهم. وبلغة الأصوليين الآية نص في معناها، لا تحتمل غير معنى واحد، كما في مصطلح الشافعية، بل قد تكون مفسرا كما في مصطلح الأحناف. ولكن لله مراد آخر حول الآية أجراه نورا على قلبي إثنين من كبار علماء الصحابة: المحدث الملهم: عمر الفاروق، وحبر الأمة وترجمان القرآن: عبد الله ابن عباس.
وهذا إن دل فإنما يدل وبوضوح ساطع أن تأويل الأصوليين يختلف عن تأويل المفسرين، من حيث المدى والعمق، أي أن منازل التأويل للآية الواحدة قد تتعدد، ولم لا ؟! والقرآن ليس بلغة العرب وحسب، بل هو قبل ذلك هو كلام الله، له إشاراته وأنواره وأسراره، اختص بعلمه العلماء الراسخون ، فما يعلمه هؤلاء بالطبع يفوق بدرجة عظيمة، ما يعرفه أهل اللغة العربية والعالمون بقواعدها وأسرارها. وما هذا إلا لتشريف أهل العلم الرباني، ورفعهم درجات على من دونهم. سبحانه وتعالى، يرفع من يشاء، من أهل العلم درجات .
ويذكر السيوطي في الإتقان بعض الآثار عن علماء الصحابة، تؤيد ذلك منها : أن ابن عباس قال: إن القرآن ذو شجون وفنون وظهور وبطون، لا تنقضي عجائبه، ولا تبلغ غايته، فمن أوغل فيه برفق نجا ومن أوغل فيه بعنف هوى، أخبار وأمثال، وحلال وحرام، وناسخ ومنسوخ، ومحكم ومتشابه، وظهر وبطن، فظهره التلاوة، وبطنه التأويل فجالسوا به العلماء وجانبوا به السفهاء .
كما ذكر السيوطي مقالة الشيخ تاج الدين بن عطاء الله السكندري في تفسير أهل التصوف: " اعلم أن تفسير هذه الطائفة لكلام الله ورسوله بالمعاني الغريبة ليس إحالة للظاهر عن ظاهره، ولكن ظاهر الآية مفهوم منه ما جلبت له الآية، ودلت عليه في عرف اللسان، وثم أفهام باطنة تفهم عند الآية والحديث لمن فتح الله قلبه، وقد جاء في الحديث: لكل آية ظهر وبطن، فلا يصدنك عن تلقي هذه المعاني منهم، وأن يقول لك ذو جدل معارضة، هذه إحالة لكلام الله ورسوله فليس ذلك بإحالة وإنما يكون إحالة لو قالوا: لا معنى للآية إلا هذا، وهم لم يقولوا ذلك، بل يقرؤون الظواهر على ظواهرها مرادا بها موضوعاتها، ويفهمون عن الله ما أفهمهم. "
كما يذكر مقالة التفتازاني في شرحه: وأما ما يذهب إليه بعض المحققين من أن النصوص على ظواهرها، ومع ذلك فيها إشارات خفية إلى دقائق، تتكشف على أرباب السلوك، يمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة، فهو من كمال الإيمان ومحض العرفان. " السيوطي، مرجع سابق، ص ٩٨١، ٩٨٢ ، ٩٨٣.
وقد استدل بعض الفقه المعاصر على صحة ما أسماه بالتفسير الصوفي الفيضي أو الإشاري، بما أوردناه من قول عمر وابن عباس حول الآيات من سورة النصر ، بل وقرر صحة بعض تأويلات أهل التصوف الإشارية ، ولكن بشروط، حيث يقول: " أما المعنى الباطن فلا يكفي فيه الجريان على اللسان العربي وحده، بل لابد فيه مع ذلك من نور يقذفه الله تعالى في قلب الإنسان يصير به نافذ البصيرة سليم التفكير، ومعنى هذا أن التفسير الباطن ليس خارجا عن مدلول اللفظ القرآني. "
الأستاذ الدكتور / محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، دار الحديث، القاهرة، ١٤٣٣ هـ، ص ٣١١، ٣١٢، ٣١٣ .
وتعقيبي على ذلك أن التأويل الإشاري، لا ينكشف لأهل اللسان العربي، من العامة وعامة العلماء، ولكنها معان لطيفة وإشارات عميقة تبعثها الآيات، يجريها الله تعالى على قلوب من اختصهم من خواص خواص العلماء، وهذه المعاني بداهة لا تؤدي إليها ظواهر الألفاظ، وإلا فبما اختص الله تعالى هؤلاء إن كانت تلك المعاني ظاهرة من ألفاظها، فهي أسرار أودعها الله تعالى في كلامه، لا تنكشف إلا لمن اصطفاه الله لتلقي أسرار وأنوار القرآن.

هدف البحث :

بيان حقيقة وجوهر التأويل، ومحله وهو آي القرآن العظيم، تمهيدا لبيان نطـاق تأويـل الأصوليين من نطاق تأويل المفسرين، وماهية العلاقـة المتبادلـة بينهمـا، والـضوابط والموازين التي تحكم تحديد وبيان كل نطاق، وكيفية الترجيح بين التأويلين، وذلك عبـر التحليل والاستقراء والاستنباط في النصوص القرآنية، لتخريج الأدلة الشرعية على تلك الأهداف المرجوة، بحول الله تعالى وتوفيقه. ([1])

أهمية البحث ودواعيه:

يُعِين بيان نطاق وحقيقة التأويل على النحو المبين في الأهداف، الباحث والمجتهـد فـي معرفة منازل النص القرآني من التأويل، ومن ثـم تحديـد طبيعـة القواعـد الملائمـة لاستقراء النص وتحليله، وهل هى قواعد علم الأصول أم قواعد علـم التفـسير ؟ أم كلاهما؟ كما أن ذلك مهم للغاية، **لبيان كيف يمكن للتأويلين الأصولي والتفـسيري أن يتعاونا معا**، بحيث يهتدى ويستفيد الباحث والمجتهد مـن هـذا التعـاون فـي عمليـة الاستنباط في النص([2])، ومن ثم الوقوف على مراد النص ومغزاه، ومن ثم معرفة مـا قد يكون قد تضمنه من أحكام وعلل ومقاصد شرعية. وهذا من شأنه ألا يُغفل الباحـث أهمية كل نوع من التأويل، وهو يؤدى إلى زيادة تمكين المجتهد في الاستنباط وتخـريج الأحكام وعللها ومقاصدها.

كذلك فإن تحديد موازين لبيان نطاق ومنازل التأويل – عبر بيان حقيقـة التأويـل وآي القرآن العظيم – يوفر جهدا ووقتا، يمكن استغراقه في استقراء النصوص دون جـدوى، لكون تلك الموازين تبين للمجتهد ومن الوهلة الأولى، طبيعة النص ومنزله من التأويل،

---

[1]) اختلاف التأويل فيما بين المفسرين أنفسهم شائع، لاختلاف مشاربهم وطرائقهم، وكذلك اختلاف التأويل بين الأصوليين أنفسهم، والبحث يهدف إلى بيان حقية التأويل وحقيقة أنوار محله، من آي القرآن العظيم، تمهيدا لبيان موازين – ضوابط – لتحديد نطاق التأويل في النص، هل النص يحوي تأويل طائفة بعينها وحسب ؟ أم يحوي تأويل كل طائفة منهما ؟ وإن كانت الأخيرة، فهل يتعارض التأويلان ؟ وإن كان فما السبيل للترجيح إن لم يمكن التوفيق ؟

[2]) الاستنباط في النص نوعان: استنباط فقهي، وهو من عمل الفقيه، واستنباط أصولي وهو من عمل الأصولي، والأول غايته المباشرة معرفة الحكم الشرعي، والثاني غايته المباشرة بيان كيفية الاستدلال ووضع قواعد الاستنباط الأصولية التي تعين الفقيه في عمله، والنوعان يتأثران بطريقة فهم النص وتأويله، سواء كان تأويلا أصوليا أو نفسيريا، أو كلاهما معا ، ومن هنا تبرز أهمية البحث ودواعيه.

فيسعى لتنزيل وتفعيل القواعد المناسبة على النص، سواء كانت أصولية أو تفسيرية، أو كلاهما معا.

كذلك فإن تلك الموازين تفض أي تعارض قد يقع بين التأويلين، لكونها تبين نطاق و منزل كل نص من التأويل، بل تؤدى إلى التوفيق والتلاحم بينهما، وترجح أيهما على الآخر– عند عدم إمكانية التوفيق – حسبما يرشد منزل النص ومقصده. لاسيما أن مشارب المفسرين وطرائقهم متعددة، ومن ثم نظرهم في تأويل الآيات يتباين، مما يزيد الحاجة لوضع لتلك الموازيين، لبيان أقرب الأقوال للصواب، والله الهادي لسواء السبيل.

خطة البحث وموضوعه:

الحديث عن حقيقة وجوهر التأويل، ومحله ومنازله وموازينه، يقتضى بيان معنى التأويل لغة، والمعاني التي ورد بها في القرآن الكريم، ثم فى اصطلاح العلماء، سواء علماء التفسير أو علماء الأصول، حيث تتضح العلاقة والفروق بين النوعين من التأويلين، ثم بناء على ذلك وعبر بيان كنه النص القرآني، يتم بيان حقيقة وجوهرالتأويل بوجه عام ، وهذا ما نعرضه في البحث الماثل، بحول الله تعالى.

وإذا رسخ في الذهن ما سبق وتجلت معالمه واضحة ([1])، فإنه من الممكن استنباط بعض الموازين التي بها يتبين منزل النص ونطاقه ([2])، أي هل منزله منزل التفسير، أم منزل الأصول، أم كلاهما ؟ وكيف يمكن عبر تلك الموازين بيان تعاضد المنزلين على ذات النص، وفض التعارض بينهما، ثم الترجيح إن لم يمكن التوفيق. ثم يبقى

---

[1]) حيث لا يمكن بيان موازين التأويل، إلا بعد الوقوف على حقيقة وطبيعة التأويل ذاته بوجه عام، وبيان كل نوع من التأويل بصفة خاصة، بل وقبل ذلك الوقوف على حقيقة وجوهر النص القرآني ذاته، لكونه محل التأويل. **أي عبر بيان محل التأويل و حقيقة التأويل يمكن معرفة واستنباط موازين التأويل.**

[2]) وقد تبين لنا بعون الله أن كنه القرآن أنوار متراكبة، بعضها من بعض، فلفظه نور ومعناه نور ومقصده نور وحكمة العالم به نور، إذن هي أربعة أنوار، متداخلة متوائمة، يلاقي بعضها بعضا، وتلكم الأنوار الأربعة هي موازين التأويل في النص القرآني، وميزان تلك الموازين: حكمة العلماء الراسخين، وعبر تمازج تلك الأنوار، يعرف منزل النص وتأويله، والإشكالية هنا تكمن في كيفية ضبط تلك الأنوار ومعرفة وزن كل منها بالنسبة للآخر، حتى لا يطغى نور على آخر في نظر من يؤول، فتطمس أنوار ما ينبغي أن تطمس، ولا سبيل لضبط تلك الأنوار وبيان نطاقها، إلا بما أوتي الراسخون في العلم من حكمة. ويبقى تساؤل يمثل لب لباب ذلك البحث ألا وهو: كيف تُفعل حكمة العلماء لضبط أنوار النص ؟ وهو ما نحاول بيانه تفصيلا إن شاء الله تعالى في دراسة لاحقة.

تنزيل تلك الموازين على بعض النصوص القرآنية، لبيان كيفية تفعيلها وتطبيقها في النص.

ولما كانت تلك الموازين تقتضي دراسة مستفيضة، لذا فقد رأينا أنه من المناسب أن نعرضها إن شاء الله تعالى في دراسة مستقلة لاحقة. ونقصر البحث الماثل على حقيقة التأويل وحقيقة محله من آي القرآن العظيم.

وعلى ذلك تكون محتويات البحث الماثل كما يأتي:

باب وحيد: في بيان التأويل

الفصل الأول: التأويل تأصيل وتحليل .

المبحث الأول: التأويل في القرآن الكريم.

المطلب الأول: التأويل استقراء وتحليل.

المطلب الثانى: لفظة تأويل تعقيب وتأصيل.

المبحث الثاني: التأويل اصطلاحا .

المطلب الأول: التأويل في اصطلاح المفسرين.

المطلب الثاني: التأويل في اصطلاح الأصوليين.

الفصل الثانى: حقيقة التأويل وأنواعه.

المبحث الأول: جوهر النص القرآنى (نور على نور)

المطلب الأول: تواتر النصوص القرآنية على أن القرآن نور.

المطلب الثاني: بيان جوهر وكنه نور القرآن العظيم.

المبحث الثانى: جوهر التأويل وأنواعه.

المطلب الأول: جوهر التأويل.

المطلب الثاني: أنواع التأويل .

الباب الأول

في بيان التأويل

للوقوف على معنى التأويل وحقيقته، ينبغي بداية بيان معناه لغة، ثم معانيه الواردة في القرآن الكريم، فهو نبع اللغة وأصلها ومستودع الحقيقة وأسرارها، وأقوال المفسرين بشأنها، وما نرجحه منها، ثم نعقب تحليلا وتأصيلا، ثم نبين معناه في اصطلاح المفسرين وفي اصطلاح الأصوليين، وهذا في فصل أول.

ثم نبين جوهره، وتقسيمه بحسب طريقته وأسلوبه، إلي تأويل أصولي وتأويل تفسيري، والعلاقة بينهما، ولا يتأتى الوصول لحقيقة وجوهر التأويل بنوعيه، إلا عبر الوقوف على حقيقة جوهر النص القرآني، لكونه محل التأويل ومصدر أنواره، فالتأويل فرع والنص أصل، ولا يمكن الاهتداء لحقيقة الفرع إلا عبر الوقوف على حقيقة الأصل، لذا بيان التأويل وجوهره، لا يكون إلا عبر بيان كنه النص القرآني وجوهره، وهذا نبينه في فصل ثان.

الفصل الأول

التأويل تأصيل وتحليل

المبحث الأول

التأويل في القرآن الكريم

نستهل هذا المبحث بالتعرف على معنى التأويل لغة، ثم استقراء آيات الذكر الحكيم التي تضمنت لفظة تأويل، وأقوال المفسرين بشأنها، ثم الرأي الذي قد يبدو لي. وهذا نبينه في مطلب أول، ثم نعقب برأينا حول أصل لفظة تأويل، وهذا نبينه في مطلب ثان.

المطلب الأول: التأويل استقراء وتحليل

أولا: التأويل لغة:

جاء في مقاييس اللغة: أن أوّل بمعنى: أرجع ، ومنه قولهم: أوّل الحكم إلى أهله ، أي أرجعه ورده إليهم، ومنه قولهم: آل جسم الرجل، إذا نحف ، أي رجع إلى تلك الحال، وقولهم: آل الرجل رعيته، إذا أحسن سياستها، وآل الرجل: أهل بيته لأنه إليه مآلهم وإليهم مآله. أي مرجعهم إليه، ومرجعه إليهم. ومن هذا الباب تأويل الكلام ، وهو عاقبته وما يؤول إليه. ([1])

ثانيا: استقراء وتحليل للفظة تأويل في القرآن الكريم:-

استقراء لفظة تأويل، في كتاب الله عز وجل، دل على ورودها عدة مرات:

يقول الله تعالى:

" هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٧﴾

(آل عمران ٧)

قال القرطبي: التأويل قد يكون بمعنى التفسير، وقد يكون بمعنى ما يؤول الأمر إليه، وأولته تأويلا أي صيرته. ثم قال: التفسير بيان اللفظ والتأويل بيان المعنى . ([2])

---

[1]) أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، مقاييس اللغة، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٩ هـ، ص ٦١، ٦٢، كتاب الهمزة، باب الألف مع الواو واللام.

[2]) أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن،المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٣٠ هـ، المجلد الثاني ص ٢٩٥، ٢٩٦.

وقال البغوي: تأويله: تفسيره وعلمه، وذكر قول البعض: أنه عاقبته . ([1])
قال الزمخشري: "وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ "، أي طلب أن يأولوه التأويل الذي يشتهونه. "وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ " أي لا يعلم تأويله الحق الذي يجب إلا الله والراسخون في العلم . ([2])

والرأي عندي: هو ما ذهب إليه الزمخشري، لكونه فسر تأويل في سياق النص، فالتأويل جاء في النص في سياقين، الأول: سياق ذم، في قوله تعالى: " ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ " حيث عطف التأويل على الفتنة، لذا كان تأويلا مذموما، والثاني: سياق مدح واستحسان، في قوله تعالى: " وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ "
حيث رد التأويل لعلم الله، ثم لعلم الراسخون في العلم عند البعض ([3])، لذا كان تأويلا ممدوحا.
دل ذلك على أن وضع اللفظ في سياقه الصحيح، يسفر عن تفسيرأو تأويل صحيح، وأن إخراج اللفظ عن سياقه، يطمس المعنى المراد والمغزى المستفاد. ([4])
قوله تعالى:
" هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ " (الأعراف ٥٣)

---

[1]) أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، تفسير البغوي (معالم التنزيل)، دار ابن حزم، بيروت، ١٤٢٣ هـ، ص،١٨٩ .

[2]) أبي القاسم جار الله محمود بن عمر، الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف، دار المعرفة، بيروت، ١٤٣٠هـ، ص ١٦١.

[3]) رأى بعض العلماء أن قوله تعالى: " والراسخون في العلم " كلام متصل بما قبله، ورأى البعض الآخر أنه كلام مقطوع مما قبله، ومن رآه متصلا نسب إليهم علمهم بتأويل المتشابه، ومن رآه مقطوعا لم ينسب، ورد تأويل المتشابه لعلم الله وحده. في تفصيل ذلك القرطبي، مرجع سابق، المجلد الثاني، ص ٢٩٦.

[4]) يعني ذلك أن لغة القرآن تتوقف ليس وحسب على المعنى الحرفي للألفاظ، بل تتوقف قبل ذلك على **سياق النص ومناسبته وواقعه**، وهو ما نبحثه إن شاء الله تعالى في الجزء الخاص بموازين التأويل، تحت عنوان لغة النص القرآنية. وهو ما يعني بعبارة أخرى أن نور المعني – المستفاد من السياق والمناسبة –يسعف في بيان نور اللفظ، أي في بيان معانيه المقصودة وأفقه البعيدة، فقد عرف من ذلك أن التأويل **لغة** قد يكون ردا للصواب، وقد يكون ردا لغير الصواب.

جاء في الكشاف أن تأويله عاقبة أمره، وما يؤول إليه من ظهور صحة وصدق وعـده ووعيده.([1])

جاء في تفسير الرازي: أن تأويل: مرجع الشئ ومصيره، وقال الفراء: الضمير في تأويله يعود على الكتاب، والمراد عاقبته من الثواب والعقاب. ([2])

وجاء في الجامع لأحكام القرآن: أن تأويله من آل، والمعنى هل ينتظرون إلا ما وعـدوا به في القرآن من العقاب والحساب، وقال مجاهد تأويله: جـزاؤه، أي جـزاء تكـذيبهم بالكتاب، وقال قتاده: تأويله: عاقبته.([3])

وجاء في تفسير الجلالين أن تأويله: عاقبة ما فيه. ([4])

والذي يستبين من أقوال المفسرين، أن تأويله لم تخرج عن معناها اللغوي كثيرا، وهـو ما يرد ويرجع إليه، من حقيقة ما أخبر به القرآن، من وعد ووعيد.

قوله تعالى:

" بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ (يونس ٣٩)

جاء في الكشاف ما معناه: أن لما يأتهم تأويله، أي لم يتدبروا نظمه ومعانيه المعجـزة، وسارعوا بتكذيبه، ولم ينتظروا عاقبة أمره، من صدق المغيبات التي أخبر بها . ([5])

ويستفاد من ذلك أن رد الكلام عبر تدبره، إلى معناه المقصود، هو تأويله.

وجاء في أحكام القرآن: أي لم يأتهم حقيقة ما وعدوا في الكتاب، أو لـم يـأتهم حقيقـة عاقبة التكذيب من نزول العذاب بهم، وقيل للحسين بن الفضل: هل تجد في القرآن: من جهل شيئا عاداه ؟ قال نعم في موضعين: منهـا قولـه تعـالى: " بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ "

[1]) الزمخشري الخوارزمي،مرجع سابق، ص ٣٦٥.

[2]) محمد الرازي، تفسير الرازي، المشتهر بمفاتح الغيب، دار الفكر، بيروت، ١٤٠١ هـ ، الجزء الرابع عشر ، ص ١٠٠.

[3]) أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن،المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٣٠ هـ، المجلد الرابع، ص ١٤٢.

[4]) جلال الدين المحلى و جلال الدين السيوطي، تفسير الجلالين، الدار العالمية للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤٣٤ هـ، ص ١٥٧.

[5]) الزمخشري، الكشاف، مرجع سابق، ص ٤٦٤.

ويضيف القرطبي قائلا أن: تكذيبهم بالقرآن بسبب جهلهم بمعانيه وتفسيره، وهذا يدل على أنه يجب أن ينظر في التأويل.(١)

قوله تعالى:

" وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ (يوسف ٢١)

قال الزمخشري: تأويل الأحاديث : أي عبارتها وتفسيرها . أو بيان وتفسير كتب الله وسنن الأنبياء، وما غمض وتشابه على الناس، من مقاصدها وحكمها المودعة فيها.(٢)

وقال الرازي: كيفية الاستدلال بأصناف المخلوقات الروحانية والجسمانية على قدرة الله تعالى وجلالته وحكمته. (٣)

وقال القرطبي: أي أحاديث الأمم والكتب ودلائل التوحيد، فهو إشارة للنبوة. (٤)

وجاء في الجلالين: تأويل الأحاديث تعبير الرؤيا. (٥)

الذي أرى: أن تأويل الأحاديث في هذه الآية على وجه الخصوص، المراد منه، تعبير الرؤيا، كما قال بعضهم، فسياق النص وإشارته يدلان على ذلك، فالآية السابقة لتلك الآية، ورد فيها تحذير يعقوب ليوسف عليهما السلام، بعدم إخبار إخوته بما رأى من رؤيا، والتحذير لا يكون إلا من أمر معلوم أو يمكن علمه، ولما كان التحذير من إخباره لهم بالرؤيا، مخافة أن يكيدوا له، دل تلميحا على أن الرؤيا معلوم أو ظاهر تأويلها، سواء كان تأويلها ظاهر لإخوته، أو ظاهر ليعقوب ويوسف، وهو من باب أولى.

ودليل ذلك أيضا، أن الآية افتتحت ببيان اجتباء يوسف، أي اصطفاؤه، أي أن تعبير الرؤيا التي ذكرت في الآية السابقة –رقم ٥–، دل على اصطفائه، لذا استهلت تلك الآية – رقم ٦ – ببيان تأكيد ذلك الاصطفاء. أي سيقت الآية رقم ٥ تمهيدا للآية رقم ٦.

١) القرطبي، مرجع سابق، ٤٨٢، والذي أرى أن تكذيبهم لختم الله على قلوبهم، عقابا لعنادهم وكفرهم، وليس لمحض جهلهم، فهم أهل البلاغة والفصاحة، ودليل ذلك الآيات التاليات لتلك الآية، (٤٢، ٤٣)، حيث جاء بها ما معناه: أنهم صم عمي عن الهدى والحق، وإن كان لهم أسماع وأبصار.

٢) الزمخشري، مرجع سابق، ص ٥٠٥.

٣) الرازي، مرجع سابق، ص ٩٢.

٤) القرطبي، مرجع سابق، المجلد الرابع، ص ٨٧.

٥) الجلالين، مرجع سابق، ص ٢٣٦.

ومن إشارات ذلك الاصطفاء أن يعلمه ربه وحيا بالأحاديث – الرؤى – الدالة على اصطفائه، ويعلمه كذلك وحيا بتأويلها، أي تعبيرها وتفسيرها.

قوله تعالى:

" وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾
(يوسف ٢١)

وقال الرازي والجلالين، في تأويل الأحاديث، مثل ما قال سابقا.

وقال القرطبي: قيل المعنى: مكناه لنوحي إليه بكلام منا، ونعلمه تأويله وتفسيره، وتأويل الرؤيا، وتم الكلام.([1])

قوله تعالى:

" وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا " (يوسف ١٠٠)

وواضح أن تأويل هاهنا معناها تعبير رؤيته، التى افتتحت بها السورة. أو أن معناها: رد وإرجاع مشاهد الرؤية في عالم الغيب، إلى معناها المقصود منها والحادث في عالم الشهادة، وهو ما يوافق معنى تأويل لغة. وجعلها حقا أي واقعا موجودا تشهده العين.

قوله تعالى:

" وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ "
(الكهف ٨٢)

قال القرطبي: تأويل أي: تفسير. ([2])

والذي أرى: أن معنى تأويل: بيان المقصد والحكمة من تصرف الخضر، وهو قريب من معناها اللغوي، فهو إرجاع التصرف ورده لمقصوده ومعناه المبتغى. أي مراد الشارع ومقصوده.

ودليل ذلك، أن القرآن أرجع فعل الخضر، في الحالات الثلاث – السفينة، الغلام، الغلامين اليتيمين – لثلاث إرادات : أردت، فأردنا، فأراد ربك ([3])، والأولى

---

[1]) القرطبي، مرجع سابق، ص ١٠٧.

[2]) القرطبي، مرجع سابق، المجلد الرابع، ص ٥٤٩.

[3]) الآيات أرقام ٧٩، ٨٠، ٨١ من سورة الكهف.

والثانية حتما مردهما لإرادة الله – فالخضر لم يفعل ما فعل بأمره، بل إلهاما من الله تعالى، أى في جميع الأحوال مرجع – أي تأويل– فعل لخضر، لمراد الله وحكمته سبحانه. والتي بينتها الآيات تباعا، في شأن السفينة، الغلام، والغلامين اليتيمين.

المطلب الثاني: لفظة تأويل تعقيب وتأصيل

استقراء أقوال المفسرين والآيات السابقة، يدل على أن كلمة تأويل حيثما وردت في القرآن الكريم، لا تخرج عن معناها اللغوي كثيرا، فتأويل الكلام بوجه عام هو إرجاعه ورده للمعنى المقصود منه، سواء كان المعنى قريبا أو بعيدا، أي تدبره، لمعرفة مراميه.

وتأويل القرآن، هو تدبره للوقوف على معانيه ومراميه، خاصة البعيدة منها، أي رد اللفظ لحقيقة معانيه المقصودة منه.

ووقوع ما أخبر به القرآن الكريم، من حساب وعذاب، ووعد ووعيد، وغيرها من الغيبيات، هي من قبيل التأويل، لكونه صيرورة المعنى المخبر به إلى حالته الواقعية.

فرد اللفظ لحقيقة معناه تأويل، ورد أو صيرورة المعنى لحقيقة واقعه تأويل. ([1])

وإذا تعلق التأويل بغير الكلام، دل على أحد معانيه اللغوية، آنفة الذكر.

وإذا كانت لفظة التأويل، تعني إرجاع أمر لأمر آخر، فهذا يعني وجود ثمة رابطة او علاقة بين الأمرين، سواء كانت رابطة مادية أو معنوية، أو كلاهما، هذه الرابطة هي سبب صيرورة أو أيلولة هذا الأمر لذاك.

ويمكن القول أن العلاقة بين الأمرين، هي علاقة شبيهة بعلاقة الأصل بالفرع، فالفرع منبثق عن الأصل، والأصل منشأ الفرع.

فقولنا آل فلان، يعني وجود صلة قرابة بين الشخص وآله، ويعنى في ذات الوقت أن الشخص أصل وآله فروع. وقولهم أوّل الحكم إلى أهله ، أي أرجعه إليهم، فالرابطة بين الحكم وأهله رابطة معنوية، والحكم فرع وأهله أصل، لكون الحكم مرده إليهم. ولولا أنهم أهل حكمة ما رد الحكم إليهم.

---

[1]) مع ملاحظة أن لفظ القرآن، ليس مجرد لفظا عربيا وحسب، بل هو لفظ يحمل كلام الله الموحى به لرسوله صلى الله عليه وسلم، وهذا المعنى أو الكلام الموحى به، يؤثر في مدى وطبيعة وخصائص تأويله. وهذا غاية في الأهمية لبيان فحوى تأويل التنزيل. وهو ما سيتم بيانه لاحقا، إن شاء الله تعالى. كما أن وضع اللفظ في سياقه ومناسبته وواقعه، أمر غاية في الأهمية للوقوف على المعنى المراد من اللفظ ، أي لتأويله. كما أشرنا سلفا عند تعقب معنى التأويل في القرآن، وكما سنبين تفصيلا – إن شاء الله تعالى – عند الحديث عن لغة النص القرآنية، كأحد موازين منازل التأويل، في دراسة لاحقة مستقلة.

وقولهم آل الرجل رعيته، إذ أحسن سياستها، فالرابطة معنوية بين الرجل ورعيته، ولكونه أهل للحكم والحكمة والعدل، كان مرجعهم إليه في شئونهم، وملجأهم إليه في ضرورياتهم وحاجاتهم، وتنعم الجميع بعدله وحكمته، لذا استحق أن يكون مرجعهم، أي أصلا لهم يهرعون إليه، أي أن مآلهم إليه، وما كان ذلك كذلك، إلا لعظيم حكمته وجميل عدله.

كذلك تأويل الكلام، هو رده وإرجاعه لأصله، أي معناه المقصود منه، فالمعنى وجد قبل اللفظ، لذا فالمعنى أصل واللفظ فرع، وما وجد اللفظ إلا ليعبر عن حقيقة المعنى. ثم أن رد المعنى المراد من اللفظ، لحقيقة واقعه المقصود من المعنى، نوع من التأويل.

دليل ذلك تعبير الرؤى، فرد معبر الرؤى، ما سمعه من أحداث وأقوال، لمعنى معين هو تأويل، لكونه رد قول أو حدث لأصله أي لمعناه المقصود، لذا فهو تأويل. ثم وقوع وتجسيد هذا المعنى في دنيا الواقع، هو أيضا تأويل، لكونه رد ذات المعنى لأصله المجسد في الواقع. **أي تعبير الرؤيا تأويل، ثم وقوعها في الواقع تأويل.**

شاهد ذلك قوله تعالى:

" وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ (يوسف ٢١)

فتأويل تأويل الواردة في الآية، تعني تعبير وبيان المعني المقصود من الأحاديث التي سمعها المعبر ممن رأى الرؤيا، أي العبور من الرموز للمعاني المقصودة، لذا فهي تعبير. وهذا ما يقتضيه سياق النص بجلاء.

وقوله تعالى:

" وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا " (يوسف ١٠٠)

أما تأويل تأويل الواردة في تلك الآية، فمعناها وقوع المعنى الذى تم تعبيره من قبل، أي تجسيده في عالم الشهادة وفي دنيا الواقع. وهذا ما يقتضيه أيضا سياق النص وبجلاء بين.

وعلى ذلك يمكن القول كما ذكرنا سالفا: أن رد اللفظ لحقيقة معناه تأويل، ورد المعنى وصيرورته لحقيقة واقعه تأويل.

كذلك رد ألفاظ القرآن وإرجاعها لمعانيها المقصودة منها، سواء القريبة أو البعيدة، هي تأويل لألفاظه لا ريب، ثم وقوع تلك المعاني سواء في عالم الشهادة – كانهزام الروم ثم غلبهم على الفرس – أو في عالم الغيب – كتنعيم أهل الجنة وتعذيب أهل النار – هو كذلك تأويل لا ريب. ولما كان القرآن كلام الله، وكل ما أخبر به حق وصدق، واقع لا ريب، فتأويل غيبياته سواء بسواء مع الواقع المشاهد لنا، بل أصدق مما تشاهده العين، فالعين قد تخدع صاحبها، ولكن إخبار الله لنا أصدق مما تراه أعيننا.

المبحث الثاني

التأويل في الاصطلاح

المطلب الأول: التأويل في اصطلاح المفسرين

قال الزركشي: قال الراغب: التفسير أعم من التأويل، وأكثر استعماله في الألفاظ، وأكثر استعمال التأويل في المعاني، كتأويل الرؤيا، وأكثره يستعمل في الكتب الإلهية، والتفسير يستعمل في غيرها، والتفسير أكثر ما يستعمل في معاني مفردات الألفاظ([1]).

كما قال الزركشي: قيل: أن التأويل كشف ما انغلق من المعنى، ولهذا قال البجلي: التفسير يتعلق بالرواية، والتأويل يتعلق بالدراية ([2]). وقال الزركشي والسيوطي: قال قوم منهم البغوي والكوشي: التأويل صرف الآية إلى معنى موافق لما قبلها وما بعدها، تحتمله الآية، غير مخالف للكتاب والسنة من طريق الاستنباط ([3]).

وقال السيوطي: قال قوم: ما وقع مبينا في كتاب الله تعالى ومعينا في صحيح السنة سمي تفسيرا، لأن معناه قد ظهر ووضح، وليس لأحد أن يتعرض إليه باجتهاد ولا غيره ، بل يحمله على المعنى الذي ورد ولا يتعداه. والتأويل: ما استنبطه العلماء العاملون لمعاني الخطاب الماهرون في آلات العلوم. وذكر السيوطي كذلك، قول أبو

---

[1]) بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، دار التراث، القاهرة، ١٤٠٤، ص ١٤٩، وذكره جلال الدين السيوطي، في الإتقان في علوم القرآن، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة، ج٢، ص ٩٥٦.

[2]) الزركشي، مرجع سابق، ص ١٥٠، وذكره السيوطي، مرجع سابق، ص ٩٥٧.

[3]) الزركشي، مرجع سابق، ١٥٠، السيوطي، مرجع سابق، ص ٩٥٧.

نصر القشيري: أن التفسير مقصور على الاتباع والسماع، وأن الاستنباط يتعلق بالتأويل. ([1])

وقال السيوطي: قال الماتريدي: التفسير: القطع على أن المراد من اللفظ هذا ، والشهادة على الله أنه – سبحانه – عنى باللفظ هذا، فإن قام دليل مقطوع به فصحيح وإلا فتفسير بالرأي، وهو المنهي عنه . والتأويل: ترجيح أحد المحتملات بدون القطع والشهادة على الله.

كما قال السيوطي: قال أبو طالب التغلبي: التفسير بيان وضع اللفظ إما حقيقة أو مجازا، كتفسير الصراط بالطريق، والصيب بالمطر. والتأويل: تفسير باطن اللفظ، وهو مأخوذ من الأوّل وهو الرجوع لعاقبة الأمر . ([2])

وقال الدكتور الذهبي، رحمه الله تعالى: قال العلامة الآلوسي، في مقدمة تفسيره: وعندي أنه إن كان المراد الفرق بينهما بحسب العرف فكل الأقوال فيه – ما سمعتها وما لم تسمعها – مخالف للعرف اليوم، إذ قد تعورف من غير نكير : أن التأويل إشارة قدسية، ومعارف سبحانية، تتكشف من سجف العبارات للسالكين، وتنهل من سحب الغيب على قلوب العارفين، والتفسير غير ذلك. ([3])

التعقيب على أقوال العلماء في شأن التأويل والتفسير:

البين من أقوال جمهور العلماء أن التفسير بيان المعنى على وجه القطع، إما لغة، وإما سماعا، أى من الشارع نفسه، أما التأويل، فهو استنباط سائغ لمن اختصهم الله تعالى، بكشف أنوار القرآن، و تدبر ما فيه من أسرار وبيان.

المطلب الثاني: التأويل في اصطلاح الأصوليين

قال الجويني رحمه الله تعالى في ورقاته تحت عنوان الظاهر والمؤول: الظاهر: ما احتمل أمرين أحدهما أظهر من الآخر، ويؤل الظاهر بالدليل، ويسمى الظاهر بالدليل. أي أن التأويل عنده صرف الظاهر إلى معنى – من معنيين – يحتمله بالدليل.([4])

---

[1]) السيوطي، مرجع سابق، ص ٩٥٧.

[2]) السيوطي، المرجع السابق، ٩٥٧.

[3]) الأستاذ الدكتور / محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، دار الحديث، القاهرة، ١٤٣٣ هـ، ص ٢٤.

[4]) أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني، متن الورقات، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة، ١٤٢٩، ص ٢٠.

قال الغزالي رحمه الله تعالى في مستصفاه تحت عنوان الظاهر والمؤول: التأويل عبارة عن احتمال يعضده دليل، يصير به، أغلب على الظن من المعنى الذي يدل عليه الظاهر ، ويشبه أن يكون كل تأويل صرفا للفظ عن الحقيقة إلى المجاز ، وكذلك تخصيص العموم: يَردُ اللفظ عن

الحقيقة إلى المجاز . وأضاف الغزالي أن الاحتمال قد كون قريبا، ومن ثم يحتاج إلى دليل قريب، وإن كان الاحتمال بعيد، افتقر إلى دليل قوي، يجبر بعده ([1])

ويفهم من كلام الغزالي أن محل التأويل هو اللفظ الذي يحتمل معنيين، أي اللفظ الظاهر، وأن ترجيح معنى على آخر بالدليل هو التأويل الأصولي ، أو تأويل الظاهر . وأن صرف اللفظ عن الحقيقة إلي المجاز بالدليل، هو من قبيل التأويل، وأن تخصيص العام بالدليل، هو أيضا من قبيل التأويل، لكونه رد العام عن حقيقته، في استغراق كل أفراده، إلى قصره على بعض الأفراد، أي رده من الحقيقة إلى المجاز. ([2])

ويقول ابن رجب الحنبلي شارحا لكلام المرداوي صاحب التحرير: أن التأويل الصحيح هو: حمل ظاهر على محتمل مرجوح بدليل، يصيره راجحا، ويعلم من ذلك أن حمله بغير دليل يسمى تأويلا فاسدا، وحمل اللفظ على ظاهره لا يسمى تأويلا، وكذلك حمل المشترك على أحد محامله أو محمليه لا يسمى تأويلا.

والظاهر : أي لفظ دل دلالة ظنية وضعا أو عرفا، ويشرحه ابن رجب بقوله: الذي يفيد معنى مع احتمال غيره.

---

[1]) أبو حامد محمد الغزالي، المستصفى من علم الأصول، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٩، ج٢، ص ٣٩. وأشار الغزالي إلى أن أشهر معنى للنص هو ما لا يتطرق إليه احتمال أصلا، ودل على معنى على سبيل القطع، أما ما احتمل أكثر من معنى بدون دليل يطلق عليه النص أيضا، ولكن أقل شهرة في الاستعمال، أما اللفظ الذي يحتمل معنى، غير ما يدل عليه ظاهره، بالدليل، فهو محل التأويل وهو اللفظ المؤوّل، وذكر الغزالي أن الشافعي رحمه الله سمى هذا الظاهر – المؤول – نصا ، ولعل الشافعي رأى الظاهر نصا، من جهة أنه واضح في معنى من معانيه المحتملة.

[2]) ويفرق الغزالي بين النص والظاهر والمجمل إذ يقول: أن اللفظ إذ تعين معناه، بحيث لا يحتمل غيره سمي مبينا ونصا، وإما يتردد بين معنيين فصاعدا من غير ترجيح، فيسمى مجملا، وإما أن يظهر في أحد المعنيين ولا يظهر في الثاني، فيسمى ظاهرا. الغزالي، مرجع سابق، ج٢، ص٢٢. ووفقا لهذا التقسيم المبين أكثر وضوحا من الظاهر والظاهر أكثر وضوحا من المجمل. ويلاحظ من كلام الغزالي أن الظاهر يحتمل معنيين لا أكثر ، وإن احتمل أكثر يسمى مجملا.

ومقصود كلام ابن رجب: تغليب المعنى المرجوح على المعنى الظاهر، لاستناد المرجوح إلى دليل، هو التأويل الصحيح. ([1])

والبين من كلام صاحب التحرير ، هو ذات ما قرره الجويني والغزالي، في شأن التأويل.

وذكر الزركشي أن جمهور العلماء: على أن التأويل الصحيح شرطه: توافر الدليل المقبول، على ترجيح الاحتمال المخالف لظاهر اللفظ ، وأن ترجيح أقوى الظنين عند التقابل هو الصواب.

وذكر قول الغزالي والرازي من أن التأويل: هو احتمال يعضده دليل يصير به أغلب على الظن من الظاهر، وأن التأويل لا يتطرق للنص ولا الإجمال. ([2])

وجاء في إرشاد الفحول أن التأويل: صرف الكلام عن ظاهره إلى معنى يحتمله. ([3])

ويقول الإمام النسفي الحنفي: المؤول: ما ترجح من المشترك بعض وجوهه بغالب الرأي .ومقصود كلامه، كما ورد في شرحه: أن ما لم يترجح من اللفظ المشترك يظل مشتركا، وما ترجح على وجه معين، بتأويل المجتهد، المستند إلى خبر الواحد أو القياس أو نحوه ، وهو المراد بغالب الرأي.([4])

---

[1]) محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن علي الفتوحي الحنبلي، المعروف بابن النجار، شرح الكوكب المنير، المسمى بمختصر التحرير ، أو المختبر المبتكر شرح المختصر في أصول الفقه، تحقيق الدكتور/ محمد الزحيلي والدكتور/ نزيه حماد ، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٤١٣، ج٣ ، ص ٤٥٩، ٤٦٠. وإخراج المشترك من حد التأويل، لكون المشترك لفظ يحتمل أكثر من معنى بوضعه في اللغة، أما التأويل ترجيح معنى ضعيف مرجوح على معنى ظاهر، بدليل صير المرجوح راجحا. وبعبارة أخرى المشترك يفارق الظاهر، في كون المشترك يحتمل أكثر من معنى بحسب وضعه اللغوي و بدرجة متساوية من حيث الترجيح ، أما الظاهر متبادر منه معنى مباشر قريب أقوى من معنى آخر بعيد محتمل، فالأصل أن المعنيين مختلفين من حيث قوة الترجيح، وصار المرجوح منهما راجحا بالدليل . عكس ذلك ما قاله النسفي، الحاشية التالية رقم (٣٧). ويبدو أن قول النسفي قد يكون صحيحا، إذا كان الاشتراك ظاهرا فيه ترجيح أحد معانيه، وفقا لسياق النص أو مقصده أو مناسبته، ولكن على الرغم من ظهور هذا المعنى إلا أنه عدل عنه لمعنى آخر مرجوح ، لدليل أقوى.

[2]) محمد بن بهادر الزركشي، البحر المحيط في أصول الفقه، طبعة وزارة الأوقاف بدولة الكويت، ١٤١٣ هـ، ج٣، ص ٤٣٦، ٤٣٧، ٤٣٨ وذكر قول الغزالي من أن الظاهر هو المتردد بين أمرين، وفي أحدهما أظهر ، أي أوضح . وقول الغزالي وغيره أن التأويل لا يتطرق إلى النص، فهو صحيح لكون النص ما دل بصيغته على معنى لا يحتمل غيره، والتأويل يقتضي احتمال معنى في اللفظ، غير المتبادر من ظاهره، أما المجمل فلا أرى أنه لا يقبل التأويل على الدوام، قريب من هذا ما ذكره: الشيخ عبد الوهاب خلاف، علم أصول الفقه، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٣ هـ ، ص ٢٠١.

[3]) محمد بن علي الشوكاني، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، تحقيق أبي حفص سامي بن العربي، دار الفضيلة، الرياض، ١٤٢١، ص ٧٥٤.

[4]) حافظ الدين النسفي أبو البركات عبد الله بن أحمد، كشف الأسرار، شرح المصنف على المنار ، مع شرح نور الأنوار على المنار ، للشيخ حافظ أحمد بن أبي سعيد الحنفي، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون سنة نشر، ج١، ص ٢٠٤، ٢٠٥.

ومن العلماء المعاصرين:

يقول الشيخ الخضري: أن الشافعية قسموا التأويل إلى قريب وبعيد، ومتعذر غير مقبول، وأن صرف اللفظ عن معناه الظاهر لقرينة، هو المؤول.[1]

ويقول الشيخ عبد الوهاب خلاف رحمه الله، التأويل: صرف اللفظ عن ظاهره بدليل، ومن المقرر أن الأصل عدم صرف اللفظ عن ظاهره، وأن تأويله أي صرفه عن ظاهره، لا يكون صحيحا إلا إذا بني على دليل شرعي من نص أو قياس، أو روح التشريع أو مبادئه العامة. [2]

ويقول البعض : التأويل: صرف اللفظ عن معناه الظاهر، إلى معنى آخر يحتمله اللفظ، بدليل صحيح، يدل على ذلك، كصرف اللفظ عن معناه الحقيقي إلى معنى آخر بطريق المجاز، وكصرف العام عن عمومه، وقصره على بعض أفراده. [3]

ويقول البعض الآخر التأويل: هو تبيين إرادة الشارع من اللفظ، بصرفه عن ظاهر معناه المتبادر منه، إلى معنى آخر يحتمله بدليل أقوى يرجح هذا المعنى المراد. [4]

التعقيب على أقوال الأصوليين في بيان حد التأويل:

البين من أقوال الجمهور أن التأويل الأصولي: هو تغليب معنى مرجوح للفظ، صار بالدليل السائغ راجحا، على معنى متبادر من ظاهر اللفظ، وبعبارة أخرى التأويل الأصولي يتعلق بتغليب معنى محتمل للفظ، فالاحتمال ركنا في التأويل، فبدون الاحتمال لا يتصور الحديث عن التأويل، فالنص الذى لا يحتمل إلا معنى واحد على سبيل القطع، لا يمكن أن يكون محلا للتأويل، وعملية ترجيح أحد المحتملات، هي ضربا من ضروب الاستنباط في النص .

ومن ثم فجوهر التأويل عند علماء الأصول هو ذات جوهره عن علماء التفسير، فكلاهما جوهره الاستنباط في النص، ولكن الاستنباط لدى المفسرين أكثر عمقا وأوسع نطاقا وأقوى استمددا وإلهاما.

---

[1]) الشيخ محمد الخضري، أصول الفقه، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٤ هـ، ص ١٣٠.

[2]) الشيخ عبد الوهاب خلاف، مرجع سابق، ص ١٩٠.

[3]) الأستاذ الدكتور / أحمد فراج حسين، أصول الفقه الإسلامي، المكتب العربي للطباعة والنشر، مصر، ١٤٠٦ هـ، ص ٣٢٠ .

[4]) التعريف للدكتور / فتحي الدريني، حيث ذكره الأستاذ الدكتور / قطب مصطفى سانو، في مؤلفه: الاجتهاد في النص في الفكر الأصولي، دون ذكر دار للنشر، ١٤٣٤ هـ، ص ١٥٧.

خاتمة

الفصل الأول

قمت بعون الله تعالى، باستقراء وتحليل وتأصيل، لفظة تأويل في آي القرآن، حيث تم عرض أقوال أهل العلم وأدلتهم حولها، والرأي الذي أرى، وشواهده وقرائنه، ثم عرجت على تحليل وتأصيل لفظة تأويل، ثم بيان التأويل اصطلاحا لدى أهل العلم من المفسرين والأصوليين . وعبر ذلك جميعا تم استخلاص النتائج التالية:

أولا: أن معاني التأويل اللغوية تدور حول رد الشئ لشئ آخر،أي نسبته إليه لعلاقة ما بينهما.

ثانيا: أن كلمة تأويل حيثما وردت في القرآن الكريم، لا تخرج عن معناها اللغوي كثيرا، فهي تدل بوجه عام على رد اللفظ للمعنى المقصود منه، سواء كان المعنى قريبا أو بعيدا، وهذا الرد لا يتأتى إلا عبر تدبر اللفظ، أو الاستنباط فيه، لمعرفة معانيه البعيدة، ومقاصده الدفينة.

ثالثا: أن التأويل كما ورد في القرآن، لا يعن رد اللفظ لمعناه المقصود وحسب، بل قد يعني وقوع المعنى المخبر به، في عالم الشهادة أو عالم الغيب.

رابعا: تحليل لفظة تأويل يقتضي القول أن إرجاع أو رد اللفظ لمعناه المقصود، هو من قبيل رد الفرع للأصل، فالمعنى أصل لوجوده قبل اللفظ ، واللفظ فرع لكونه نشأ بناء على المعنى، والتأويل هو رد الفرع – أي اللفظ – لأصله، أي لمعناه، ثم أن وقوع المعنى في الواقع هو نوع أيضا من التأويل، لكونه نوع من الرد والإرجاع، ولكنه ليس إرجاع لفظ لمعنى، ولكنه إرجاع معنى لحقيقة واقعه، أي تجسيد المعنى في عالم الواقع المقدر له، أي تجسيد المعنى في صورة وقائع ملموسة.

خامسا: البين من أقوال جمهور المفسرين أن التفسير بيان المعنى على وجه القطع، إما لغة، وإما سماعا، أى من الشارع نفسه، أما التأويل لديهم: فهو استنباط سائغ لمن اختصهم الله تعالى، بكشف أنوار القرآن، و تدبر ما فيه من أسرار وبيان.

سادسا: البين من أقوال جمهور الأصوليين أن التأويل الأصولي: هو تغليب معنى مرجوح للفظ، صار بالدليل السائغ راجحا، على معنى متبادر من ظاهر اللفظ.

سابعا: أن كلا من التأويل الأصولي والتأويل التفسيري، من جوهر واحد، من حيث الأصل ، لكن التأويل التفسيري أبعد عمقا وأرحب نطاقا، وأشد أنوارا وأسرارا.

الفصل الثانى

حقيقة التأويل وأنواعه

نبين في هذا المبحث بعون الله تعالى ، جوهر التأويل بوجه عام، ولا يتأتى بيـــان ذلـــك إلا عبر بيان حقيقة وجوهر النص القرآني، فالنص القرآني أصل والتأويـــل فـــرع، ولا يستبين الفرع إلا عبر بيان طبيعة وحقيقة الأصل، فالقرآن منهل العلمـــاء، ولا يـــتمكن العالم من النهل من نبعه الفياض، الذي لا ينضب أبدا، إلا إذا عرف كيفية النهـــل منـــه، ولا يتمكن من ذلك إلا عبر معرفة جوهر وطبيعة المنهل ذاته، أي القرآن العظيم، فـــإن علم ذلك، تيسر الوقوف على حقيقة وطبيعة التأويل ذاته، لكونه الوسيلة أو الكيفية، التى يتدبر أو يستنبط بها العالم في النص .

ولما كان نهل أو استنباط المفسر يختلف عن نهل أو استنباط الأصولي، لزم بيان أنـــواع التأويل وفق أكثر من معيار، والفروق بينها، وهو ما يستبين معه علاقة وأثر كل منهـــا في الآخر.

وعلى ذلك نبين في مبحث أول جوهر النص القرآني، ثم نبين في مبحث ثـــان جـــوهر التأويل وأنواعه.

المبحث الأول: جوهر النص القرآني. (نور متراكب من أربعة أنوار)

المبحث الثاني: جوهر التأويل وأنواعه.

المبحث الأول
جوهر النص القرآني
(نور متراكب من أربعة أنوار)
(نور على نور)

نعرض في فرع أول النصوص القرآنية الدالة على كون القرآن نور، وأقوال المفسرين حولها وتعقيبنا بشأنها، ثم نعرض في فرع ثان – وهذا هو الأهم – لحقيقة كنه النور القرآني، وأدلة ذلك.

المطلب الأول: تواتر النصوص القرآنية على أن القرآن نور

يقول الله تعالى في كتابه العزيز:

" يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴿١٧٤﴾ " (النساء ١٧٤)

ذكر القرطبي عن الثوري: أن البرهان هو النبي صلى الله عليه وسلم، وعن الحسن أن نورا هو القرآن، وسماه نورا لأن به تبين الأحكام ويهتدى به من الضلالة، فهو نور مبين، أي واضح بين. (١)

وقال صاحب الكشاف: البرهان والنور المبين هو القرآن، أو أن البرهان هو دين الحق أو الرسول صلى الله عليه وسلم، وأن النور المبين ما يبينه ويصدقه من الكتاب المعجز. (٢)

وقال الألوسي: قال مجاهد والسدي وقتادة: نورا مبينا هو القرآن، وأضاف الألوسي: وقد يكون المراد من البرهان القرآن الكريم، لكونه دليل على صدق من جاء به، ونورا لكونه بين في ذاته مستغن عن غيره، ولكونه من الله تعالى، وأن به يعرف الحق من الباطل. (٣)

والذي أرجح: أن البرهان هو النبي صلى الله عليه وسلم، لتناسب لفظ جاءكم مع النبي صلى الله عليه وسلم، ولتناسب لفظة أنزلنا مع القرآن، فالبرهان لا يجئ والقرآن لا

---

(١) القرطبي، مرجع سابق، ج١، المجلد الثالث، ص ٣٠٢.

(٢) الزمخشري، مرجع سابق، ص ٢٧٥. وجاء في الجلالين أن نورا مبينا هو القرآن، مرجع سابق، ص ١٠٥.

(٣) شهاب الدين السيد محمود الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، إدارة الطباعة المنيرية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون سنة نشر، ج٦، ص ٤٢، ٤٣.

يجئ، ولكنه منزل من لدن حكيم خبير، وقد تضافرت صراحة نصوصه على كونه منزل.

ومن ثم فليس المراد بالبرهان القرآن، لكون القرآن لا يجئ، ولكنه منزل، ومن أسمائه التنزيل.

وقد عبر القرآن عن مجئ نبي الله موسى عليه السلام، بقوله تعالى:

" وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ "

(البقرة ٩٢)

ومن ثم فنص القرآن: جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ، يتناسب مع بعثة النبي ولا يتناسب مع نزول القرآن.

هذا من جهة تناسب اللفظ، أما من جهة تناسب المعنى، فالنبي صلى الله عليه وسلم برهان، لكونه الصادق الأمين، الذي شهدت له قريش بذلك، ومن ثم فهو لا يكذب فيما يبلغه عن ربه من القرآن، لذا فالنبي صلى الله عليه وسلم – لصدقه وأمانته – كان برهانا لقريش، على أن القرآن كلام الله. فقريش لا تؤمن بالله الواحد، ولكنها تؤمن بصدق النبي صلى الله عليه وسلم، فإن هي صدقته صدقت ما يبلغه عن ربه، لذا كان النبي صلى الله عليه وسلم برهانا. ([1])

" ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ " (الأعراف ١٥٧)

يقول جمهور المفسرين أن النور الذي أنزل معه هو القرآن. ([2])

---

[1]) وقد يكون البرهان هو القرآن، من جهة أن القرآن متحدى بإعجازه في كل زمان ومكان، لذا فهو برهان على أنه كلام الله ، فلا يستطيع مخلوق أن يأتي بمثله.

[2]) القرطبي، مرجع سابق، ج٢، المجلد الرابع، ص ١٩٦، الزمخشري، مرجع سابق، ص ٣٩١، الجلالين، مرجع سابق، ص ١٧٠. وأرى أنه واضح بل مفسر، دل عليه السياق، فضلا عن تواتر النصوص القرآنية على نعته بالنور، بل النور اسم من أسماء القرآن، كما أرى، والله أعلم.

قال الله تعالى:

" وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ " (الشورى ٥٢)

قال القرطبي : عن عودة الضمير الهاء، في جعلناه: قال ابن عباس والضحاك: يعني الإيمان، قال السدي: القرآن، وقيل الوحي.

جاء في الجلالين في جعلناه: الروح أو الكتاب.([١])

قال الألوسي: أي الروح الذي أوحيناه إليك، وقال: قال ابن عطية: الضمير للكتاب ، وقيل للإيمان، ورجح للقرب، وقيل للكتاب والإيمان معا، ووحد لكون مقصدهما واحد.([٢])

والرأي الذي أرجح: أن الضمير يعود على الكتاب ، حيث نعت بالنور في كثير من الآيات، والإيمان قبس من نور الكتاب ، ولولا الكتاب – أي القرآن – ما كان الإيمان، فالإيمان أثر نوراني من نور القرآن.

كما أن الكتاب بدل من روح، ونعت القرآن – أو الكتاب – بأنه روح لأن به حياة القلوب المؤمنة، وبدونه يموت القلب ويصدأ، والعياذ بالله. ([٣])

قال الله تعالى:

" فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ " (التغابن ٨)

قال القرطبي: النور الذي أنزلنا هو القرآن. ([٤])

قال الزمخشري: عنى برسوله والنور نبينا محمد صلى الله عليه وسلم والقرآن. ([٥])

جاء في الجلالين: النور هو القرآن. ([٦])

---

[١]) الجلالين، مرجع سابق، ص ٤٨٩.

[٢]) الألوسي، مرجع سابق، ج ٢٥، ص ٦٠.

[٣]) ونعت القرآن بالروح، هو ما سمعناه من فضيلة الشيخ الإمام محمد متولي الشعراوي رحمه الله تعالى ، في خواطره الإيمانية حول هذه الآية.

[٤]) القرطبي، مرجع سابق، ج٣، المجلد التاسع، ص ٢٨٤.

[٥]) الزمخشري، مرجع سابق، ص ١١١٣.

[٦]) الجلالين، مرجع سابق، ص ٥٥٦.

قال البغوي: النور هو القرآن. ([1])

والرأي الذي أرجح : هو ما ذهب إليه جمهور المفسرين، وأرى أن النور مجملا فسره ما بعده، فصار مفسرا لا يقبل التأويل. بل فسرته آيات عديدة في كتاب الله ، بأن القرآن – الكتاب – منزلا. ([2])

قال الله تعالى:

" يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ " (التوبة ٣٢)

قال القرطبي: نور الله: دلالته وحجته على توحيده، جعل البراهين بمنزلة النور لما فيها من البيان، وقيل المعنى نور الإسلام. ([3])

جاء في الجلالين: أن نور الله شرعه وبراهينه. ([4])

قال البغوي: نور الله دينه، وقال الكلبي نور الله القرآن. ([5])

قال الألوسي: نور الله: حجته النيرة الدالة على وحدانيته، أو القرآن العظيم، أو نبوته صلى الله عليه وسلم . ([6])

جاء في تفسير المقباس لابن عباس: نور الله: دين الله. ([7])

والرأي الذي أرجح: أن نور الله هو القرآن العظيم، وذلك لعدة مرجحات منها:

أن القرآن مصرح بأنه نور في عدد من آياته، أن القرآن هو الحجة البالغة على وحدانية الله، لما حواه من صنوف الإعجاز البياني والبلاغي، فضلا عن القصص والعبر والعظات والحكم والأحكام وغيرها، أنه أصل الأصول وعليه مدار الأحكام والفروع، فهو أصل الشريعة و مصدر الدين، وما عداه من أدلة، بما فيها السنة، تجد دليلها في القرآن. أنه المتحدى بإعجازه، ومن ثم لا يستطيع الكفار إطفاء نوره، أنه

---

[1]) أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، تفسير البغوي (معالم التنزيل)، دار ابن حزم، بيروت، ١٤٢٣ هـ، ص١٣١٩ .

[2]) كقوله تعالى: " إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ (النساء ١٠٥) ، وقوله تعالى: " إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ " (يوسف ٢).

[3]) القرطبي، مرجع سابق، ج٢، المجلد الرابع، ص ٣٣٩.

[4]) الجلالين، مرجع سابق، ص ١٩٢.

[5]) البغوي، مرجع سابق، ص ٥٥٣.

[6]) الألوسي، مرجع سابق ، ج١٠، ص ٨٥.

[7]) أبي طاهر بن يعقوب الفيروز آبادي، تنوير المقباس تفسير ابن عباس،، دار الفكر، بيروت، ١٤٢١ هـ، ص ١٩٢.

أضيف في الآيه لله تعالى، وإضافته ترجح كونه كلام الله، أي القرآن، فالله من أسمائه النور وكلامه نور، وقد أبان هذا النور أحكام الشريعة وأصول الدين، إما جملة وإما تفصيلا. لذا فما قاله المفسرون– من كونه دين الله أو الحجة على وحدانيته أو نبوته صلى الله عليه وسلم، أوغير ذلك – يمكن رده جميعا إلى القرآن.

قال الله تعالى:

" يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨﴾ " (الصف ٨)

وما قيل سلفا عن آية سورة التوبة، هو ذاته ما يمكن أن يقال عن تلك الآية المباركة.

المطلب الثاني: بيان جوهر وكنه نور القرآن العظيم

قال الله تعالى:

" ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ " (النور ٣٥)

١)أقوال المفسرين حول الآية والقول الذي أرى:

١/١)في بيان معنى قوله تعالى: " ٱلله نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ " :–

قال القرطبي : قال ابن عباس وأنس : المعنى الله هادي أهل السموات والأرض، قال مجاهد : مدبر الأمور في السموات والأرض ، قال أبي بن كعب والحسن وأبو العالية: مزين السموات بالشمس والقمر والنجوم، ومزين الأرض بالأنبياء والعلماء والمؤمنين.(١)

جاء في الجلالين: أي منورهما بالشمس والقمر.(٢)

١) القرطبي، مرجع سابق، ج٢، المجلد السادس، ص ٣٤٩ ، وجاء في تنوير المقباس قول ابن عباس : الله هادي أهل السموات والأرض ، مرجع سابق، ص ٣٥٤. وذكر البغوي مثل ما ذكر القرطبي، البغوي، مرجع سابق، ص ٩٠٩.

٢) الجلالين، مرجع سابق، ٣٥٤.

قال الزمخشري: صاحب نور السموات والأرض، وأنه شبه الحق بالنور لظهوره وبيانه، وأنه أضاف النور للسموات والأرض لأحد معنيان: إما لسعة إشراقه حتى تضئ له السموات والأرض، وإما لأن أهل السموات والأرض يستضيئون به. ([1])

١/١/١)الرأي الذي أري:

الله نور السموات والأرض، أي خالق أو مسبب أو موجد، **كل نور مادي أو معنوي**، لكل خلقه، فالنور المادي ضياء الشمس ونور القمر وأنوار النجوم، وغيرها مما يدخل في معناها وجنسها، والنور المعنوي، هو نور الهداية ومعرفة الله تعالى، وما يقتضيه من اتباع أحكام الشريعة. ([2])

فكل شئ يسبح بحمده تعالى، فالجمادات والعجماوات تسبح، لكونها تعرف خالقها سبحانه، وما عرفته إلا لسريان نور معرفته إليها، بقدرته سبحانه، فقد سبح الحصا في يد النبي صلى الله عليه وسلم، واشتكى إليه البعير، وحن الجزع وبكى لفراقه صلى الله عليه وسلم، وكلمه الذئب ، وسعت إليه الشجرة، وغير ذلك من معجزاته صلى الله عليه وسلم، فإن كانت تلك الكائنات قد عرفت النبي صلى الله عليه وسلم، ألا تعرف خالقها سبحانه ؟ بلى، وهو من باب أولى. وما عرفته إلا بنور الاهتداء الرباني، الذي سرى إليها أينما وكيفما أراد الله تعالى لها. لذا فالله تعالى موجد كل نور لكل خلقه. والله أعلم.

٢/١) في بيان معنى قوله تعالى: " مَثَلُ نُورِهِۦ ":

قال القرطبي: صفة دلائله التي يقذفها في قلب المؤمن، ووجه الإضافة لله تعالى أنه مثبت الدلالة ومبينها وواضعها ([3])

جاء في الجلالين: أي صفته في قلب المؤمن. ([4])

---

[1]) الزمخشري، مرجع سابق، ص ٧٣٠. وذكر الألوسي قول البيضاوي: أن إضافة النور للسموات والأرض لسعة إشراقه ، أو لاشتمالهما على الأنوار الحسية والعقلية، كما ذكر قول الزمخشري: من أن الله نور السموات والأرض، أي الله تعالى نور العالم كله، وهو من قبيل إطلاق الجزء على الكل، الألوسي: مرجع سابق، ص ١٦٥ .

[2]) وفي هذا تأييد لقول الزمخشري من أن المراد بالسموات والأرض العالم كله، وهو من قبيل المجاز، حيث أطلق البعض وأراد الكل – أي أطلق السموات والأرض وأراد كل خلقه وكل العوالم – وقولنا قريب من قول البيضاوي من اشتمال السموات والأرض على الأنوار الحسية والعقلية، راجع الحاشية السابقة.

[3]) القرطبي، مرجع سابق، ج٢، المجلد السادس، ص ٣٤٩ .

[4]) الجلالين، مرجع سابق، ٣٥٤.

جاء في تفسير المقباس لابن عباس: نور المؤمنين، ويقال مثل نور الله في قلب المؤمن. ([١])

قال البغوي: مثل نور الله تعالى في قلب المؤمن، وقال: قال: سعيد بن جبير عن ابن عباس: مثل نوره الذي أعطي المؤمن ، وقال: قال الحسن وزيد بن أسلم: أراد بالنور القرآن، وقال: قال سعيد بن جبير والضحاك: المراد بنوره: نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . ([٢])

قال الزمخشري: أي صفة نوره العجيبة الشأن في الإضاءة .

١/٢/١)الرأي الذي أرى:

كل نور مرده إلى الله تعالى، فهو سبحانه خالق وواجد كل شئ ، والتمثيل في الآية يشمل كل نور، ولا وجه لتخصيصه وقصره على نور بعينه، كما خصصه بعض المفسرين، دليل ذلك أن الآية افتتحت بقوله تعالى: " ٱلله نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ "، أي واجد أو خالق كل نور في السموات والأرض، سواء كان ماديا أو معنويا، كما ذكرنا آنفا، ثم مثل نوره – كل نوره، أى كل ما أوجده الله تعالى من نور حسي أو عقلي – بالمثال المضروب في الآية، فالمناسبة والسياق يقتضيان عدم القصر والتخصيص على نور بعينه، فلا يستقيم أن تفتتح الآية بما يدل على أن الله تعالى واجد لكل نور، ثم عند بيان جوهر ذلك النور، نقصره على نور بعينه، أي نقصره على نور الهداية أو الاستدلال أو الإيمان، أو ما شابه. بل المثال يشمل كل نور، والله أعلم. ([٣])

٣/١) في بيان معنى قوله تعالى:

" كَمِشۡكَوٰةٍ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ

[١]) مرجع سابق، ص ٣٥٤.

[٢]) البغوي، مرجع سابق، ص ٩٠٩.

[٣]) ومما يدل على ما نقول، واقع الأشياء وطبيعتها، فالأنوار المادية التى تحيط بنا كنور الشمس أو نور المصباح العادي، أو غيرها، أثبت العلم الحديث، أنها أنوار يمكن زيادة قوة إضاءتها، أو تجميع أشعتها الضوئية وزيادة كثافتها، فتتراكب من عدة أنوار، بعضها يدعم بعضا، فتكون نور على نور، وعلى ذلك فليست أنوار الهداية والإيمان، هي وحدها نور على نور، بل كذلك الأنوار الحسية أو المادية، وهو ما يتفق مع عموم اللفظ: نوره ، فهو مفرد معرف بالإضافة إلى الضمير ، وهو من ألفاظ العموم، ولم ينهض دليل على تخصيصه. بل الواقع يؤكد عموم اللفظ دون تخصيص.

لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ " :

قال القرطبي: قال: ابن جبير وجمهور المفسرين: المشكاة: الكوة في الحائط غير النافذة، وهي أجمع للضوء، والمصباح فيها أكثر إنارة منه في غيرها ، وقال: قال: مجاهد المشكاة هي القنديل، وقال: الزجاجة جسم شفاف، والمصباح فيه أنور منه في غير الزجاج، والمصباح: الفتيل بناره، وقال: وقال في قوله تعالى : "كوكب دري " : أي في الإنارة والضوء، وذلك يحتمل معنيين: إما يريد أنها – أي تلك الأنوار المتراكبة – بالمصباح كذلك ، وإما أن يريد أنها في نفسها لصفائها وجودة جوهرها كذلك. وهذا التأويل أبلغ في التعاون على النور . وقال: قال: الضحاك: كوكب دري: هو الزهرة. وقال القرطبي في قوله تعالى: "يوقد من شجرة مباركة " : أي من زيت شجرة، فحذف المضاف – أي زيت – والمباركة المنماة، والزيتون من أعظم الثمار نماء. ([1])

وقوله تعالى: " لا شرقية ولا غربية ": قال: قال ابن عباس وعكرمة وقتادة وغيرهم: الشرقية التي تصيبها الشمس إذا شرقت ولا تصيبها إذا غربت لأن لها سترا . والغربية عكسها، أي أنها شجرة في صحراء ومنكشف من الأرض لا يواريها عن الشمس شئ ، وهو أجود لزيتها، فليست خالصة للشرق فتسمى شرقية ولا للغرب فتسمى غربية، بل هي شرقية غربية، وقال الحسن: ليست هذه الشجرة من شجر الدنيا، وإنما هو مثل ضربه الله تعالى لنوره، ولو كانت في الدنيا لكانت إما شرقية وإما غربية، وقال الثعلبي: قد أفصح القرآن أنها من شجر الدنيا، وقال ابن زيد إنها من شجر الشام، وشجر الشام لا شرقي ولا غربي، وهو أفضل الشجر ، وهي الأرض المباركة. ([2])

وقال القرطبي في قوله تعالى: " يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار ": مبالغة في حسنه وصفائه وجودته. وقال في قوله تعالي: " نور على نور ": أي اجتمع في المشكاة ضوء المصباح إلي ضوء الزجاجة وإلى ضوء الزيت، فصار لذلك نورا على نور. واعتقلت هذه الأنوار في المشكاة فصارت كأنور ما يكون، فكذلك براهين الله تعالى

[1]) القرطبي، مرجع سابق، ج٢، المجلد السادس، ص ٣٤٩ .

[2]) القرطبي، مرجع سابق، ج٢، المجلد السادس، ص ٣٥٠ .

واضحة وهي برهان بعد برهان، وتنبيه بعد تنبيه، كإرساله الرسل وإنزاله الكتب، ومواعظ تتكرر فيها لمن له عقل معتبر. (1)

١/٣/١)الرأي الذي أرى:

أ)فيما يتعلق بالمعنى المراد من الآية:

الآية مثل، لبيان طبيعة النور، الذي أوجده الله تعالى لعباده، سواء كان نورا ماديا أو معنويا، ومصدر ذلك النور هو مفاتح تأويل طبيعته، فلو عرف طبيعة المصدر لتيسر معرفة طبيعة آثاره ونطاقه. فالمصدر أصل وما تولد عنه من أنوار وأضواء فروع، والفرع يتبع الأصل في الطبيعة والحقيقة.

فمصدر نور المصباح زيت، ولكنه زيت مقيد بأوصاف: **أولها:** أنه من شجرة مباركة، **ثانيها:** الشجرة زيتونة، **ثالثها:** أنها لا شرقية ولا غربية، **رابعها:** أنه زيت يكاد يضئ لو لم تمسسه نار. فأما أنها **شجرة مباركة:** فجلي أنها كثيرة النماء، وأن بركتها لا ريب من الله، فالنور حتى في المثل مرده إلى الله تعالى، خالق الشجرة وموجد بركاتها، وأما **أنها زيتونة:** لعظم منافعها وفوائدها مقارنة بغيرها، وقد أقسم الله بثمرها، دلالة على ذلك، **وأما أنها لا شرقية ولا غربية:** أي لا تميل ناحية الشرق ولا تميل ناحية الغرب، دلالة على استقامتها وقوتها، فالإنحاء في ساقها شرقا أو غربا، دلالة على

---

(1) القرطبي، مرجع سابق، ج٢، المجلد السادس، ص ٣٥٠ . وقد ذكر البغوي عديد من أقوال العلماء عن المثل الذي ضرب في الآية، وكيف تم تأويله عند كل منهم، على نحو إيماني معنوي غير مادي، نذكر موجزها للفائدة: قال البغوي: قال كعب الأحبار عن التمثيل في الآية: التمثيل عن النبي صلى الله عليه وسلم : فالمشكاة صدره – الشريف – والزجاجة قلبه، والمصباح النبوة فيه، شجرة مباركة: شجرة النبوة، يكاد نور نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يتبين للناس ولو لم يتكلم أنه نبي، كما أن الزيت يضئ ولو لم تمسسه نار . وقال البغوي: قال محمد بن كعب القرظي: المشكاة إبراهيم، والزجاجة إسماعيل، والمصباح نبينا محمد – صلوات ربي وسلامه عليهم جميعا – والشجرة المباركة: نبي الله إبراهيم ، لا شرقية ولا غربية: أي لم يكن إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا . وقال البغوي: روى أبو العالية عن أبي بن كعب قوله: هذا مثل المؤمن، فالمشكاة نفسه، والزجاجة صدره، والمصباح ما جعل فيه من الإيمان، والقرآن في قلبه يوقد من شجرة مباركة، هي الإخلاص لله وحده. ثم أضاف أبي: المؤمن يتقلب في خمسة أنوار: قوله نور، وعمله نور، ومدخله نور ومخرجه نور، ومصيره يوم القيامة إلى النور. وقال البغوي: قال الحسن وابن زيد: هذا مثل القرآن: فالمصباح هو القرآن، والزجاجة قلب المؤمن، والمشكاة فمه ولسانه، والشجرة المباركة شجرة الوحي ، تكاد حجة القرآن تتضح وإن لم يقرأ، نور على نور، القرآن نور، والدلائل قبل نزوله نور . البغوي: مرجع سابق، ص ٩١٠، ٩١١ .

افتقارها للضوء والغذاء . ولكنها لاشرقية ولا غربية، أي يأتيها الضوء بقدر متوازن من جميع الجهات، فتستقيم ولا تميل.

لكل ذلك كان زيتها أشد صفاء من غيره، مما هو من جنسه، بل ومن غير جنسه، من زيوت أخرى، فهي ليست شجرة زيتونة عادية، بل هي شجرة ذات مواصفات مقصودة، حتى يكون زيتها نورا في ذاته، ومصدرا لنور المصباح، على أكمل ما يكون، فتسري بركة الشجرة في زيتها، ثم تسري بركة الزيت في نوره المنبعث منه، وفي المصباح المسرج بذلك الزيت، ثم تسري بركة النور المنبعث من المصباح إلى الزجاجة، فيتضاعف النور في الزجاجة من تلك البركات المتلاحقة والمتواصلة، فيظهر نور المصباح عبر الزجاجة في أشد صوره الممكنة، حتى تظهر الزجاجة كأنها كوكب دري، من شدة وكثافة النور المجمع والمنبعث منها، وهذه الزجاجة ليست في فراغ، ولكنها محفوظة مصونة في مشكاة ، حيث يزاد نور المصباح عبر الزجاجة وعبر المشكاة، ازديادا لا مثيل له، فتكون أنوارا من ورائها أنوار. نور على نور. ([1])

ب) فيما يتعلق بتحليل طبيعة وكنه النور المذكور في الآية:

التمثيل في الآية يتعلق بالنور الذي أوجده الله تعالى لعباده، سواء كان نورا ماديا أو معنويا، ولا نراه متعلقا بنورا بعينه، بل هو عام يشمل كل ما يندرج تحته من جنسه، سواء كان نورا حسي أو غير حسي، وقد بينت الآية طبيعة وكنه هذا النور، فبينت أن له مصدر، وأنه مركب من عدة أنوار، وقد سبق بيان مصدره وتفصيله، من كونه شجرة الزيتون المباركة،

والتشبيه بشجرة الزيتون والزيت المستخلص من ثمرها، مجاز كنائي للدلالة على نماء وشدة وبركة النور، المضروب لبيانه المثل.

أما كنه النور ذاته، الذي أوجده الله تعالى، فهو نور متنامي متضاعف الشدة، مركب من عدة أنوار، بعضها فوق بعض، أو بعضها في بعض، وكل نور به تلك الخاصية العجيبة، فنور المصباح وحده مركب من عدة أنوار، ونور زيته، ونور الزجاجة ونور المشكاة، كل منها مركب من عدة أنوار ، فالمثل المضروب لبيان حقيقة وكنه النور

---

[1]) حتى النار توقد أصلا من الشجر، أي مما يصير من جذوعها وأغصانها حطبا، فالمصباح يوقد من زيت شجرة مباركة، والنار توقد من جذوع شجرة، والشجرة الذي أنبتها وأوجدها هو الله تعالى، فمصدر النور – حتى في المثل – مرجعه إلى الله تعالى، وهذا يتسق مع أنه تعالى خالق وموجد كل نور، وسبب كل نور، سبحانه جل في علاه .

يشمل وينطبق على تلك الأنوار ذاتها في واقعها المادي. وكذلك ينطبق على كل نور مادي أو معنوي، في كل زمان و مكان. وكلما ازداد مصدر ذلك النور، كما وكيفا، ازدادت شدته وكثافته والأنوار المتولدة عنه والمتراكبة فيه. والعكس صحيح، فكلما ضعف المصدر أو حجب، ضعفت الأنوار وتضاءلت.

أما تأويل المثل المضروب في الآية، إلى عدة تأويلات، كما ذهب بعض العلماء ([١])، فهي من أنوار تلك الآية وإشاراتها التي يبعثها الله تعالى في قلوب العارفين والعلماء والأولياء.

ج) فيما يتعلق ببيان كنه نور القرآن عبر كنه النور الممثل في الآية:

صرحت الآيات القرآنية بكون القرآن نور، وبينت آية النور من سورة النور – الآية محل التأويل والتحليل – طبيعة وكنه ذلك النور ، فكيف يمكن تنزيل المثل في تلك الآية على القرآن ؟ وما خصوصية القرآن كنور لا مثيل له، مقارنة بغيره من الأنوار المعنوية غير الحسية ؟

أما عن تنزيل المثل على القرآن، فنور القرآن متراكب من عدة أنوار بعضها في بعض، أصل نور القرآن ومصدره هو الوحي الإلهي، والمعبر عنه في المثل بشجرة مباركة زيتونة، فهي أصل الزيت، والزيت أصل لنور المصباح ، كذلك نور الوحي الإلهي أصل لنور القرآن، ونور المصباح يقويه ويظهره نور الزجاجة، كذلك نور معنى النص القرآني يظهره ويقويه نور لفظ النص القرآني – فنور اللفظ يدل على نور المعنى والعكس صحيح– ونور المصباح والزجاجة يقويه ويبينه المشكاة، كذلك نور معنى النص ونور لفظ النص القرآني يظهره ويبينه نور المقصد والمغزى من النص، فمقاصد القرآن تبين ألفاظ ومعاني القرآن.

فالمثل المضروب في الآية بين أن النور متراكب من أربعة أنوار: **نور المصدر، وهو زيت المصباح** – المستمد من شجرة زيتونة مباركة –، **ونور المصباح ذاته**، **ونور الزجاجة** التي فيها المصباح، **ونور المشكاة** التى فيها المصباح بزجاجته، فهي أربعة أنوار.

[١]) كما ذكرناه آنفا، في الحاشية رقم (٦٢)

كذلك نور القرآن أربعة أنوار :

نور مصدره أي **نور الوحي الإلهي** – وهو يقابل في المثل نور زيت شجرة الزيتـــون – **ثم نور معناه** –وهو يقابل في المثل نور المصباح – **ثم نور لفظه** – وهو يقابل فـــي المثل نور الزجاجة – **ثم نور مقصده**، وهو يقابل في المثل نور المشكاة.

أنوار بعضها من بعض، نور على نور. وهذه الأنوار تشع أنوارا من جنسها في قلـــوب العارفين والعلماء، بإذن الله تعالى، فيهتدون بها إلى الصائب من التأويلات والمعاني.

وهذا الذي انتهينا إليه من بيان حقيقة وكنه النور القرآني، يمهـــد لبيـــان حقيقـــة وكنـــه التأويل في النص القرآني، لكون التأويل فرع والقرآن أصل، ولا تعرف حقيقـــة الفـــرع إلا عبر معرفة حقيقة الأصل. فكما أن القرآن نور كذلك لا يكون التأويل فيه إلا بنـــور مثله، يقذفه الله تعالى في قلوب العلماء، لذا كان العلماء ورثة الأنبياء. وهذا ما يؤدي بنا إلى الحديث عن جوهر التأويل وأنواعه، في مطلب ثاني من هذا المبحث.

المبحث الثاني

جوهر التأويل وأنواعه

المطلب الأول: جوهر التأويل (نور الحكمة الربانية)

نفصل في هذا الفرع حقيقة التأويل، من أنه نور متراكب من أربعة أنوار، ثم نبين الدليل على ذلك من النقل .

أولا: نور التأويل تحليلا ، متراكبا من أربعة أنوار :

تبين في المطلب السابق أن القرآن نور متراكب من أربعة أنوار، نور مصدره – الوحي – ونور لفظه، ونور معناه، ونور مقصده ، ولما كان نور القرآن لا يستبين كشفه وتأويله إلا عبر نور من جنس نور القرآن، فلا يقوى على كشف نور الوحي إلا نور من جنس نور الوحي، ألا وهو نور التأويل – نور الحكمة الربانية – وهذا يؤيده العقل والنقل.

أما العقل: فجلي، فالأشياء لا تعرف إلا بأشياء من جنسها أو من ذات قوتها، فالأدنى لا يرقى للأعلى ولا يضاهيه.

أما من النقل: فقد سبق بيان ما أشارت إليه آية النور (رقم ٣٥) من سورة النور، من أن النور المعنوي بوجه عام ونور الهداية بوجه خاص، هو نور متراكب من أربعة أنوار، ولما كان نور التأويل هو نور معنوي ونور هداية، إذن فهو متراكب كذلك من أربعة أنوار، فما هي ؟

فقد تواترت النصوص بعباراتها وإشاراتها، على بيان أن كلام الله عزيز، لا يهب بيانه وتأويله إلا لمن أتاه الله نور الحكمة والعلم الرباني.

إذ يقول الله تعالى في كتابه العزيز:

" وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ﴿٤١﴾ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴿٤٢﴾ (الشورى ٤١، ٤٢)

" بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ " (العنكبوت ٤٩)

" يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ (البقرة ٢٦٩)

ونور الحكمة مستودعه نور القلب، الممتلئ من التقوى واليقين، ولولاهما ما استضاء القلب بنوره، ونور الحكمة مصدره نور النبوة – عبر نور القلب – فلولا نور النبوة ما كان لعالم رباني من العلم نصيب، ونور النبوة مصدره نور الوحي. إذن نور التأويل متراكب من أربعة أنوار : نور الوحي، نور النبوة، نور القلب، نور الحكمة. ([1])

فنور الوحي هو المصدر ([2])، كما أن زيت الشجرة الزيتونة المباركة هو المصدر، ونور النبوة أو بالأحرى قبس منه في قلب العالم الرباني، هو كالمصباح الذي يُسرج من الزيت، وكذلك قبس من نور النبوة – في قلوب العلماء الراسخين – يستمد ويسرج من نور الوحي الإلهي والعطاء الرباني، والمصباح في زجاجة، كذلك أنوار قلوب العلماء الوارثين، كالزجاجة تجمع وتحوي قبسات أنوار النبوة، فتزداد سطوعا وإشراقا، كأنها كوكب دري.

وكلما ازداد نور قلوبهم بالتقوى واليقين، أي صفاء الزجاجة، ازداد قبس نور النبوة فيها، أي ازداد نور المصباح، فقبسات أنوار النبوة لا تزداد إلا بازدياد يقين العلماء العاملين.([3])

ونور المصباح و نور زجاجته يجتمعان في **مشكاة**، فيزداد نورا وانتشارا، كذلك قبس نور النبوة ونور قلب العالم العامل، يجتمعان في **صدره** فيملآنه من نور الحكمة، الذي

[1]) نور الحكمة لا ينفصم عن نور العقل، فنور عقل المؤمن مصدره نور حكمته، فالكافر لديه ذكاء وعقل ولكن ليس لديه نور حكمة ولا نور عقل، ولو كان لديه نور لاهتدى إلى صراط مستقيم، مصداقا لقوله تعالى: " وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ " (البقرة ٢٥٧)

[2]) المراد بالوحي في حق العلماء الراسخين، الإلهام والفتح الرباني . وقد عبر القرآن عن الإلهام بالوحي في غير موضع.

[3]) وفي هذا السياق، يقول الإمام شرف الدين أبو عبد الله محمد البوصيري في بردته الشريفة المباركة:

وكلهم من رسول الله ملتمس *** غرفا من البحر أو رشفا من الديم

وواقفون لديه عند حدهم *** من نقطة العلم أو شكلة الحكم

ويقول رحمه الله تعالى في ذات السياق:

وكل آي أتى الرسل الكرام بها *** فإنما اتصلت من نوره بهم

فإنما اتصلت من نوره بهم *** فإنه شمس فضل هم كواكبها

يفيض على جنانه ولسانه أنوارا ، فينطق من العلوم الربانية والتأويلات اللدنية، ما لا يعلم مدى أنوارها وأسرارها إلا الله، وهذه هي أنوار التأويل في التنزيل. (1)

ثانيا: الدليل من النقل على أن التأويل نور وبيان الجنس العام لذلك النور :

فقد سبق بيان ذلك باستفاضة، عند تأويل آية النور من سورة النور، فقد بينا أن كل نور مادي أو معنوي، أوجده الله تعالى لعباده، ليهتدى به، فالنور المادي يهتدى به في ظلمات البر والبحر، والنور المعنوي – كالتأويل – ينعم به الله تعالى على من شاء من عباده العلماء لبيان وتأويل آي القرآن.

وكما اتضح بالبرهان أن نور التأويل محصلة أربعة أنوار ، فالعقل يقطع بأن التأويل نور في ذاته، ونعرض لأدلة ذلك من النقل، مع بيان الجنس العام لذلك النور:

<u>١–ومما يدل على كون التأويل نور قوله تعالى:</u>

" يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٣٥﴾ " (النور ٣٥)

---

(1) كل من اصطفاه الله تعالى من عباده العلماء، من أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، له ميراث من نور النبوة المحمدية، فسراج النبوة يشع أنوارا في قلوب العلماء جيلا عن جيل، وجيلا بعد جيل، فهي سلسلة من الأنوار والبركات لا تنقطع حتى يوم الدين ، وإليه الإشارة بقوله تعالى: " يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾ " (الأحزاب ٤٥ – ٤٦) فقد سماه ربه سراجا منيرا، ومن لوازم السراج نشر الأضواء والأنوار، ولما كان نبينا – صلى الله عليه وآله وسلم – خاتم النبيين والمرسلين، لزم أن تكون أنواره باقية حتى يوم الدين، و لازم ذلك، أن تكون لتلك الأنوار واسطة تحويها، تلك الواسطة هي قلوب المصطفين من العلماء النجباء، لكونهم الوارثين لها حقا بنص الشريعة الغراء، الذي أجراه الله تعالى وحيا على لسان نبيه الأمين سيد الأولين والآخرين، إذ يقول صلى الله عليه وسلم: " إن العلماء ورثة الأنبياء " رواه الترمذي، أبو عيس محمد بن عيسى ابن الضحاك الترمذي، سنن الترمذي، تحقيق رائد صبري، دار الحضارة للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤٣٦ هـ، كتاب العلم، ص ٥٢٥، رقم الحديث ٢٦٨٢، وقال عنه صحيح . ورواه أبو داوود وابن ماجة. دليل ذلك أيضا قوله تعالى: " فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ (الدخان ٥٨)، ووجه الاستدلال أن الله تعالى لم يجعل القرآن ميسرا إلا عبر نطق النبي صلى الله عليه وسلم، فهو صلى الله عليه وسلم المخصوص بتلقيه وحيا ثم نقله لكتبته وحفظته، ثم نقل جيلا عن جيلا محفوظا بحفظ الله تعالى له، إذن فنور الوحي حُمِل عبر نور النبوة المحمدية المشع في قلبه وقالبه ولسانه أنوارا نبوية فائقة، صلى الله عليه وسلم، ثم نقلت قبسات بإذن الله تعالى، من هذا النور إلي وررثته صلى الله عليه وسلم من العلماء العاملين، إذن فقبسات أنوار النبوة في قلوب العلماء الراسخين العاملين، هي أحد الأنوار الأربعة المكونة لنور التأويل في قلوب هؤلاء العلماء .

قال القرطبي في تأويل قوله تعالى: " يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ ":
يبين الأشباه تقريبا للأفهام. ([1])

جاء في تنوير المقباس لابن عباس: يكرم الله بنوره يعني المعرفة، ويقال يكرم الله بدينه.([2])

قال البغوي: قال ابن عباس رضي الله عنهما: نور الإسلام، وهو نور البصيرة، وقيل نور القرآن. ([3])

قال الزمخشري: يوفق لإصابة الحق من نظر وتدبر بعين عقله، والإنصاف من نفسه.([4])

الرأي الذي أرى: أنه **نور الهداية**، وبه يهتدي العابد والعالم، العابد يهتدي به للإسلام، والعالم يهتدي به لتأويل آي القرآن وبيان أحكام الشريعة الغراء. فنور التأويل نوع من جنس نور الهداية.

وسببه – أي نور الهداية – في شأن العابد، قد يتعدد، فقد يكون سماع آي القرآن، أو رؤية أو سماع نبينا المصطفى العدنان، صلى الله عليه وآله وسلم، أو سماع موعظة من أحد العلماء
الأصفياء، أو غير ذلك مما يقدره رب الأرض والسماء، فالهداية أثر وما عداها مما ذكر سبب، أنوار بعضها من بعض. ([5])

أما سببه في شأن العلماء، الأصل فيه الاصطفاء والاجتباء.

---

[1]) القرطبي، مرجع سابق، ج٢، المجلد السادس، ص ٣٥٣.

[2]) تنوير المقباس، مرجع سابق، ص ٣٥٤.

[3]) البغوي، مرجع سابق، ص ٩١١.

[4]) الزمحشري، مرجع سابق، ص ٧٣١.

[5]) نورالهداية أثر، يخلف بدوره أنوارا وآثارا، كنور الإسلام والإيمان واليقين والعلم والمعرفة.

ونور اليقين ونور المعرفة يؤديان إلى مزيد من أنوار الهداية، وهكذا، أنوار من باطنها أنوار، فهذه الأنوار تدور وتطوف، ويؤدي بعضها إلى بعض . فنور الهداية كجنس عام لكل الأنوار أو معظمها، هو أثر من جهة لبعض الأسباب، وهو من جهة أخرى سبب لبعض الآثار والأنوار.

أي أن نور الهداية جنس تتفرع منه أنواع مثل: نور الإيمان، نور العلم، وغيرها، ونور العلم يتفرع منه نور الحكمة، ونور الحكمة حالة خاصة متفردة من العلم، ونور الحكمة يتفرع منه نور التأويل والبيان لآي القرآن .

ومن اكتمل عنده نور الفهم والتأويل في القرآن، فقد اكتمل عنده نور الحكمة في أمور الدين والدنيا. فالقرآن فيه بيان و حكم كل شئ من أمور الدين والدنيا، إذن فمن فقهه الله في كتابه فقد اكتملت حكمته في أمور الدين والدنيا.

وقد وردت الهداية ومشتقاتها في كتاب الله العزيز، في كثير من آياته المباركات، وأكثر ما وردت في سورة يونس، إذ يقول رب العزة في كتابه العزيز:

" وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ "

(يونس ٢٥)

" قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾

(يونس ٣٥)

وجلي أن الهداية المقصودة في تلك الآيات هي الهداية المعنوية إلى طريق الحق أي طريق الإسلام والإيمان.

٢-كذلك مما يدل على أن التأويل نور قوله تعالى: " وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ " (النور ٤٠)

أي من حرم نور الهداية فأنى له من نور، فهذا في حق العوام من العباد، وهو أولى في شأن الخواص من العلماء، ونور الهداية للعلماء، ما هو إلا نور الحكمة، التي أشرقت في قلوبهم بإذن ربهم، والتي تمكنهم من بيان وتأويل آي القرآن وأحكام الشريعة الغراء.

٣-كذلك مما يدل على كون التأويل نور من جنس نور الهداية، قوله تعالى:

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾

(الحج ٨)

قال ابن كثير : بلا عقل صحيح ولا نقل صحيح. ([١])

قال الزمخشري: العلم: العلم الضروري، والهدى: الاستدلال والنظر، والكتاب المنير: الوحي. ([٢])

وقال البيضاوي مثل قول الزمخشري . ([٣])

---

[١]) أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، دار المنار للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة ، ط١، ١٤٢٣، ج٣، ص ٢٠٩.

[٢]) الزمخشري، مرجع سابق،ص ٦٩٠.

[٣]) ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، المعروف بتفسير البيضاوي، دار صادر، بيروت، ط١، ٢٠٠١، ص ٦٨١.

وقال ابن عربي: بغير علم: أي استدلال، ولا هدى: ولا كشف ووجدان، ولا كتاب: ولا وحي وفرقان . (١)

وجاء في تفسير الجلالين: كتاب منير: له نور معه. (٢)

وجاء في تفسير المنتخب: أن العلم: أساس علمي، وهدى: إلهام صادق، وكتاب منير: كتاب منزل من الله تعالى. (٣) وهذا القول يطابق إلى حد كبير قول ابن عربي.

والرأي الذي أرى: أن الآية تضمنت بيان مراتب العلم الثلاث، **المرتبة الأولى**: علم بمقتضى نور العقل، وهذا بين من قوله تعالى: " بِغَيْرِ عِلْمٍ " ، **المرتبة الثانية** وهي أسمى من الأولى: علم بمقتضى الإلهام، أو العلم اللدني من الله بدون واسطة، وهذا بين من قوله تعالى: " وَلَا هُدًى "، وهي تخص من اصطفاهم الله من عباده العلماء، **المرتبة الثالثة**: وهى أسمى المراتب جميعا: علم بمقتضى الوحي المنزل على الأنبياء، وهي الكتب المنزلة من الله تعالى، وهي تخص الأنبياء. وهذا بين من قوله تعالى: "وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ "، وهذا الرأي يكاد يتطابق مع رأي ابن عربي .

ولبيان رأينا نقول: أن العقل قد يعجز عن إدراك الحقيقة، بوسائل إدراكه المعتاده من استدلال ونظر واستنباط ، فلا مناص حينها من نور أرقى من نور العقل، هو نور البصيرة أو نور الإلهام الإلهي، الذي يقذفه الله في قلب من اصطفاه من عباده العلماء ، وقد يرقى نور الإلهام إلى ما هو أسمى منه وهو نور الوحي المنزل على الأنبياء.

وهذه الأنوار بمراتبها الثلاث هي ضروب من نور الهداية، أي أن نور الهداية جنس عام ترتقي فيه أنوار العلم إلي مراتب بعضها أسمى من بعض. فكلها تهدي برتب وطبقات، كل على حسب رتبته وطبقته. ونور التأويل قد يكون عبر نور العقل، أي عبر النظر والاستدلال والاستنباط، وقد يكون عبر نور الإلهام الصادق، أي عبر نور الحكمة الربانية للعلماء المصطفين، وهي الصورة المثلى لنور التأويل. (٤)

---

١) محي الدين بن عربي، تفسير ابن عربي، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤٢٢ هـ، ص ٣٨٥، ٣٨٦.

٢) الجلالين، مرجع سابق، ص ٣٣٣.

٣) المنتخب في تفسير القرآن الكريم، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة القرآن والسنة، القاهرة، ط٤، ١٣٩٥ هـ، ص ٤٨٩.

٤) وقد سبق تحليل نور التأويل، حيث تبين أن مصدره الوحي أي الإلهام، ثم عبر قبس من نور النبوة وعبر نور القلب، يسطع نور الحكمة الربانية، في صدور العلماء المصطفين، حيث تتجلى تلك الحكمة، وتجرى على ألسنتهم بإذن الله تعالى ، في صورة تأويلات ربانية.

أما إن كان التأويل عبر الوحي الإلهي المنزل على الأنبياء، في الكتب الإلهيـــة، حينهـــا يكون التأويل تفسيرا وليس تأويلا، بالمعنى الاصطلاحي. لكون بيانه تم بلفظه ومعنـــاه، أو بمعناه، عبر ذلك الوحي الإلهي. ([1])

٤-كذلك مما يدل على كون التأويل نور من جنس نور الهداية، قوله تعالى:

" يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٨﴾ " (الحديد ٢٨)

قال القرطبي عن مجاهد في قوله تعالى: " وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا "، أي بيانـــا وهـــدى ، وعن ابن عباس: هو القرآن، وقيل: هو ضياء تمشون به على الصراط يوم القيامة إلـــى الجنة، وقيل : تمشون به في الناس تدعونهم إلى الإسلام فتكونون رؤســـاء فـــي ديـــن الإسلام لا تزول عنكم رياسة كنتم فيها. ([2])

قال البغوي: مثل ما ذكر القرطبي، وأضاف أن بيانا وهدى: أي سبيلا واضحا في الدين تهتدون به. ([3])

الذي أرى: أنه نور الهداية العامة وهو الجنس العام لكل نور – وهو في حـــق **العابـــد** توفيق من الله للطاعة وأسبابها، وفي حق **العـــالم** إلهـــام بأســـرار الـــشرع وأحكامـــه، وتأويل لآي القرآن. وهذا وذاك يكون له نورا يوم القيامة يمشي به، جزاء عملـــه فـــي الدنيا. أي فنور هدايته في الدنيا وفقه لنور هدايته في الآخرة، كـــل علـــى قـــدر عملـــه وإخلاصه.([4])

---

[1]) فكل مجملا ورد في القرآن أو السنة، ثم أزيل إجماله بهما أو بأحدهما، صار مفسرا وليس مأولا، الشيخ عبد الوهاب خلاف، مرجع سابق، ص ٢٠٠، ٢٠١.

[2]) القرطبي، مرجع سابق، ج ٣، المجلد الثامن، ص ١٧٢.

[3]) البغوي، مرجع سابق، ص ١٢٨٢.

[4]) وإن كانت دلالة اقتضاء النص وسياقه تشير أنه نورا يمشون به يوم القيامة، إلا أن إشارة النص ولازمه أن نورهم يوم القيامة جزاء لنور هدايتهم في الدنيا . فنور الآخرة لازمه نور الدنيا، ولولا نور هداية الدنيا ما كان نور هداية الآخرة.

٥-الدليل من السنة على أن التأويل نور من جنس نور الهداية:

كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم:

" اللهم اجعل في قلبي نورا، وفي سمعي نورا، وفي بصري نورا، وعن يميني نورا، وعن شمالي نورا، وأمامي نورا، وخلفي نورا، وفوقي نورا، وتحتي نورا، واجعل لي نورا، أو قال واجعلني نورا. " ([1])

جاء في فتح الباري شرحا للحديث:

قال: قال **القرطبي:** هذه الأنوار التي دعا بها رسول – صلى الله عليه وآله وسلم – يمكن حملها على ظاهرها، فيكون سأل الله تعالى أن يجعل له في كل عضو من أعضائه نورا يستضئ به يوم القيامة، في تلك الظلم، هو ومن تبعه أو من شاء الله منهم، قال: – أي القرطبي – والأولى أن يقال هي مستعارة للعلم والهداية كما قال تعالى: " فهو على نور من ربه "، ثم قال – أي القرطبي: والتحقيق في معناه أن النور مظهر ما نسب إليه، وهو يختلف بحسبه: فنور السمع مظهر المسموعات، ونور البصر كاشف المبصرات، ونور القلب كاشف عن المعلومات، ونور الجوارح ما يبدو عليها من أعمال الطاعات.

ثم قال: **قال الطيبي:** معنى طلب النور للأعضاء عضوا عضوا أن يتحلى بأنوار المعرفة والطاعات، ويتعرى عما عداها، فإن الشياطين تحيط بالجهات الست بالوساوس، فكان التخلص منها بالأنوار السادة لتلك الجهات. قال: – أي الطيبي – وكل

---

[1]) أخرجه مسلم في صحيحه، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري ، صحيح مسلم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٣٦ هـ، ص ٢٧٠، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم الحديث: (١٧٩٤) ١٨٧. ، وقد أخرجه مسلم بأكثر من سند ، وبألفاظ متعددة . منه هذا اللفظ:

" اللهم اجعل في قلبي نورا، وفي لساني نورا، واجعل في سمعي نورا واجعل في بصري نورا، واجعل من خلفي نورا، ومن أمامي نورا، واجعل من فوقي نورا، ومن تحتي نورا، اللهم أعطني نورا " ، صحيح مسلم، مرجع سابق، ص ٢٧٣، حديث رقم: (١٧٩٩) ١٩١.

وقد أخرجه البخاري في صحيحه، وزاد فيه قول كريب: " وسبع في التابوت ، فلقيت رجلا من ولد العباس فحدثني بهن، فذكر عصبي ولحمي ودمي وشعري وبشري، وذكر خصلتين " . الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، تحقيق د. محمد محمد حجازي، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع ، القاهرة، ١٤٣١، كتاب الدعوات، باب الدعاء إذا انتبه من الليل، ص ٨٧٧، رقم الحديث ٦٣١٦.

هذه الأمور راجعة إلى البيان وضياء الحق، وإلى ذلك يرشد قوله تعالى: " ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ " إلى آخر الأية: (٣٥) من سورة النور. (١)

التعقيب على قول العلماء: تردد قول العلماء بين كونه نور معنوي أي نور معرفة وهداية، وبين كونه نور مادي يسمع به، ويبصر به، فكل جارحة نورها يمكنها من أداء وظيفتها، وهو قول القرطبي. (٢)

الرأي الذي أرى: أن النور المقصود **هو نور معنوي، وهو نور الهداية،والذي منه تشتق أنوار العلم واليقين والمعرفة** والحكمة، ولكن كيف يكون للجوارح والأعضاء والجهات المذكورة، نورا معنويا ؟! يكون للجوارح نورا معنويا إذ تطيع الله ولا تعصاه:

فأما نورالقلب: فهو سلامته من أمراضه: الشرك والحسد والحقد والكراهية، وغيرها، وهو في ذات الوقت مملؤ بالإيمان واليقين والتقوى وتوحيد الله ومعرفته. إذن **فهو نور هداية القلب.**

و أما نور السمع: فهو نور يدرك به المؤمن كلام الله تعالى، وما به من أنوار، فينصت ويخشع ويطيع، وبه يعرض عن سماع اللهو و اللغو، وهذا **نور هداية السمع.** وغير المؤمن لديه سمع يسمع به اللغو واللهو، ويعرض به عن ذكر الله وما والاه. فهو لديه مجرد سمع وليس في سمعه نور.

وأما نور البصر: فهو إدراك المؤمن لمصنوعات الله وعجائب خلقه، فينزه الله ويوحده ويمجده، وغير المؤمن يراها وكأنه لا يرى شيئا !، وما ذاك إلا لإن في بصر المؤمن نور الهداية لعجائب خلق الله تعالى، **هو نور هداية بصره**، وغيره يفتقر لهذا النور.

فالنبي – صلى الله عليه وآله وسلم – لم يرد من دعائه مجرد السمع والبصر، بل أراد نور من الله يهتدي به سمعه وبصره إلى طريق الله. وعبر نور السمع والبصر يقتات

(١) أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وغيرهم، دار الرسالة العالمية، دمشق، ط١، ١٤٣٤ هـ، ج ١٩، ٢٥٤، ٢٥٥.

(٢) إن كان المراد أن نور الجارحة هو نور وظيفتها، فلا أراه صائبا، فالجارحة تؤدي وظيفتها عند المسلم والكافر، سواء بسواء، ولكن المراد أن تؤدي وظيفتها في طاعة الله وفي الطريق إلى الله، لذا ليس المراد هو النور المادي الحسي، ولكن المراد هو نور الهداية أي النور المعنوي. لذا المؤمن في نور والكافر في ظلمة، على الرغم من أن كلا منهما له ذات الحواس، وقد تكون عند الكافر ذات أداء أعلى.

نور القلب، وعبر نور القلب يتقوى نور السمع والبصر، فكل واحد منهما يقــوي ويمــد الأخر بإذن الله.

أما نور الجهات، فهو ليس نورا ماديا ولكنه نورا غير محسوس، يحجب بــه المــؤمن ويحفظ عن نزغات الشيطان ووساوسه،الذي يأتيه من الجهات الأربع ([1]) .

دليل ذلك قوله تعالى:

" قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ (الأعراف ١٦، ١٧)

فهذا نور يقتضيه نور الهداية، فحجب المؤمن عن وساوس الشيطان، يمكن المؤمن مــن استقبال نور الهداية، والعكس صحيح، فأنوار تلك الحجب تمهد وتعين في ســبيل نــور الهداية.

تلكم أنوار الهداية لجوارح الإنسان وأعضائه، وهي أنــوار معنويــة، تختلــف نــسبتها ويختلف مداها، فهي في حق الأنبياء في ذروتها، تمكنهم من اســتقبال أنــوار الــوحي الإلهي، وفي حق العلماء العاملين أقل مرتبة، وتمكنهم من استقبال أنــوار الإلهــام ثــم أنوار المعرفة و الحكمة والتأويل في آي القرآن، وفي حق عامة المؤمنين، تكــون أقــل مرتبة مما سبق، فتمكنهم من الطاعات وأداء العبادات . ([2])

---

[1]) وهو يوافق ما قاله الطيبي كما ورد في فتح الباري، الحاشية السابقة مباشرة. وجاء في الجلالين: أن الشيطان لا يسنطيع أن يأتي من فوقهم لئلا يحول بينهم وبين رحمة الله. مرجع سابق، ١٥٢. وفي تأويل الآية ذكر البغوي قول الحكم: " مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ": أي من قبل الدنيا يزينها لهم ، " وَمِنْ خَلْفِهِمْ " أي من قبل الآخرة يثبطهم عنها، " وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ " أي من قبل الحق يصدهم عنه، " وَعَن شَمَآئِلِهِمْ " أي من قبل الباطل يزينه لهم، ولا يستطيع أن يأتي من فوقهم، لئلا يحول بينهم وبين رحمة الله تعالى. البغوي، مرجع سابق، ص ٤٥٧. وأقول أنه لا يستطيع أن يأتي من فوقهم، تقديسا للفوقية، لشرف مكانتها، لكونها التي يرفع إليها العبد يديه، مناجيا وداعيا ربه، خاصة عند الاضطرار ، فيكون المراد من: نور من فوقي – كما ورد في الحديث – هو نور إجابة الدعاء أي نور الرحمات عند إجابة الدعاء، أو هو نور التضرع صاعدا من العبد، ونور الإجابة نازلا من الفرد الصمد، سبحانه . فتشريفا لمنزلة هذا الطريق العلوي، منع وصد الشيطان عنه.

أما الجهة التحتية، فيقصد بها موضع سجود العبد، ونورها نور القرب من الله إذ يكون العبد ساجدا، وقرب العبد بالطبع ليس قرب مكان، ولكن ارتفاع منزلة ومكانة، لذا لم يرد بالآية الجهتين الفوقية والتحتية لشرفهما، ولذا صد الشيطان عنهما. هذا والله أعلم .

[2]) وتلك المراتب تتدرج في درجات عدة، بحسب مدى نور الهداية .

المطلب الثاني: أنواع التأويل

ينقسم التأويل كما أرى إلى عدة أنواع، فبحسب طريقته، ينقسم إلى تأويل أصولي وتأويل تفسيري ([1])، وبحسب مصدره ينقسم إلى: تأويل وهبي أي محض إلهامي، وتأويل كسبي أي عقلي ، وبحسب محله ينقسم إلى: تأويل يرد على الآيات المتعلقة بأعمال العباد وأخلاقهم وعقيدتهم وقصصهم وأحوالهم، وتأويل يتعلق بالآيات المتعلقة بالخلق والإعجاز ، وبحسب نطاقه ينقسم إلى: تأويل كلي يتعلق بموضوع معين متكامل تناولته آيات عدة مجتمعة ، وتأويل جزئي يتعلق بآية بعينها، إما لكون هذه الأية تعد بذاتها ذات معنى مترابط متكامل، وإما لكونها تتضافر مع غيرها في بيان معنى معين . ([2])

ونتولى فيما يلي بيان كل نوع على نحو موجز .

النوع الأول: بحسب مصدره إلى التأويل الوهبي والتأويل العقلي:-

تبين لنا فيما سبق أن القرآن نور متراكب من أربعة أنوار، وأن التأويل نور مشتق من نور الحكمة ونور الحكمة مشتق من نور العلم وأن نور العلم مشنق من نور الهداية، والهداية في حق العلماء العاملين هي توفيق وإلهام من الله تعالى ، إذن الأصل في التأويل أن مصدره الإلهام الإلهي والفتح الرباني ، وقد سبق بيان ذلك في غير موضع، فنور القرآن يقتضى لبيانه نور من جنسه هو نور التأويل، ونور التأويل في آى القرآن لا يكون إلا بنور الإلهام من الرحيم الرحمن، وإليه الإشارة بقوله تعالى:

"بَلْ هُوَ ءَايَـٰتُۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ (العنكبوت ٤٩) .

وقوله تعالى:

" فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ (الكهف ٦٥)

[1]) سبق بيان مفهوم التأويل اصطلاحا لدى علماء التفسير وعلماء الأصول، حيث تبين لنا فيما أرى أن جوهر ه واحد لديهما، وهو الاستنباط، و إن كان التأويل لدى المفسرين أكثر عمقا وأوسع نطاقا وأقوى استلهاما، فضلا عن كون التأويل لدى الأصولين أكثر تقيدا بالقواعد الأصولية .

[2]) ولقد سبق بيان تقسيم بعض علماء الأصول من الشافعية، التأويل إلى تأويل بعيد وتأويل قريب وتاويل غير مقبول.

الآية المباركة كما هو معلوم، تحكي قصة الخضر مع نبي الله موسى ، فما هـو قـول العلماء فيها ؟

قال القرطبي: الرحمة في هذه الآية النبوة وقيل النعمة، وقولـه تعـالى: " وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا "

أي علم الغيب، وذكر قول ابن عطية: أن علم الخضر علم معرفة بواطن قـد أوحيـت إليه. (١)

قال الزمخشري: رحمة من عندنا: هي الوحي والنبوة، من لدنا هي مما يختص بنا مـن العلم ، وهو الإخبار عن الغيوب . (٢)

قال البغوي: في قوله تعالى: " وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا " أي علم الباطن إلهاما .(٣)

قال الرازي في هذه الآية: أن تلك العلوم حصلت عنده من عند الله من غير واسـطة، وذكر رسالة الإمام أبو حامد الغزالي في شأن العلوم اللدنية. (٤)

وقوله تعـالى: وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ (الحج ٨)

وقد سبق بيان قول بعض أهل العلم حول تلك الآية المباركة، حيث قـال بعـضهم أن هدى

في الآية هو الإلهام الصادق. وهذا ما أيدناه.

فالتأويل نور مصدره نور الإلهام الإلهي ، وهذا هو الأصل في التأويل. ولكن قد يكون مصدره الاستدلال العقلي، وقد قيل وبحق أن نور العقل فرع من نـور القلـب، فكـأن الاستدلال في آي القرآن بالعقل المجرد لا يكفي، بل يلزمه نور يغذيه هو نـور القلـب ونور القلب يغذيه نور الإيمان والتقوى.

(١) القرطبي، مرجع سابق، ج٢، المجلد الخامس، ص ٥٣٤.

(٢) الزمخشري، مرجع سابق، ص ٦٢٥.

(٣) البغوي، مرجع سابق، ص ٧٨٥.

(٤) الرازي، مرجع سابق، ص ١٥٠.

وإليه الإشارة بقوله تعالى :

"أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ "(الحج)

فالآية تخاطب كفار مكة باستفهام غرضه الاستنكار، من كونهم لا يعقلون ما يرون مما نزل بأمم سبقتهم من العذاب، وبينت الآية أن سبب عدم عقلهم، ليس انعدام العقل لديهم بل عمى قلوبهم أي من نور الهداية والإيمان، أي فكأن انعدام نور القلب، بأن يتجرد من الإيمان، يعدم نور العقل، ويعجزه أن يهتدي لوحدانية الله والتفكر في بديع صنعه وعظيم خلقه، فأني لعقل تجرد من هذا النور، أن يتدبر في آي القرآن، وقد عجز عن التفكر في آيات خلق الله الباهرات ؟!

إذن نور العقل فرع من نور القلب لا ريب، وكلما ازداد نور القلب ازداد نور العقل ولكن مرتبة نور العقل أقل حتما من نور الإلهام، فنور العقل يؤدي إلى بيان قدر محدود من أنوار آي القرآن، عبر الاستنباط والاستدلال، أما نور الإلهام يكشف أنوار وأسرار ما كان لنور العقل أن يكشفها. فسطوع أنوار الإلهام في قلوب من شاء الله لهم من عباده العلماء، يمكنهم من كشف أسرار وأنوار في أفق بعيدة وأغوار عميقة في نصوص آي القرآن، يعجز عنها نور العقل.

فنور العقل يقتضي شيئا من المكابدة والمجاهدة في الاستدلال والاستنباط، أما نور الإلهام يقذف في القلب دون سبب من استدلال عقلي أو استنباط منطقي. وهذا جلي في قصة الخضر مع نبي الله موسى – عليه السلام – فما فعله الخضر يناقض ما يقتضيه استدلال العقل، ولكنه يوافق نور العلم اللدني الذي قذفه الله في قلب الخضر .

بل ما حكاه القرآن من تحكيم نبي الله داود ونبي الله سليمان ، عليهما السلام، في الحرث التي نفشت فيها غنم القوم، لهي أبلغ في بيان الفارق بين نور العقل ونور الإلهام، فقد حكم داود حكما بمقتضى نور العقل، ثم حكم سليمان حكما بمقتضى نور الإلهام، إذ فهمه الله، أى أوحى له وألهمه بقضاء من لدنه سبحانه، إذ يقول عز من قال:

" وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾

(الأنبياء ٧٨، ٧٩)

وما كان الله أن يخص سليمان بفهم، أي بإلهام بالحكم، إلا ليبين فضل نور الوحي والإلهام ، على نور العقل والاستدلال . ([1])

النوع الثاني: بحسب محله إلى تأويل يتعلق بالعباد وتأويل يتعلق بغيرهم من الخلائق:

أنزل القرآن لهداية الناس وإخراجهم من عمى الضلالة والغواية إلى نور الإيمان والهداية، حيث تعلقت آياته إما بالعباد أو بغير ذلك من خلق ومخلوقات:

أولا: فالآيات المتعلقة بالعباد: تنصب موضوعاتها حول أحكام عقيدتهم ومعاملاتهم وأخلاقهم، فضلا عن بيان أخبار وأحوال وقصص الأمم ، عبر العصور المختلفة وحتى يوم القيامة، وما يتصل بذلك من وعد ووعيد، وترغيب وترهيب، للعظة والاعتبار ، وهذه الآيات وما تتضمنه من أحكام تتعلق بعلوم الشريعة الإسلامية المختلفة، ويتعلق التأويل في شقه الأعظم بهذه الأحكام.

ثانيا: الآيات المتعلقة بخلق الله تعالى للسموات والأرض، وما فيهن من بديع صنعه و وعظيم خلقه، سبحانه جل في علاه ، وهذه الآيات لها نصيب من التأويل، ولكن في العصر الحديث سعى بعض العلماء إلى إظها الإعجاز العلمي لبعض من تلك الآيات، عبر تأويلها تأويلا له أبعاد علمية متخصصة. ([2])

النوع الثالث: بحسب نطاقه: إلى تأويل كلي وتأويل جزئي:

ونقصد بالتأويل الكلي، ما تقتضيه طبيعة النصوص من إجراء تأويل ترابطي تكاملي بين جميع الآيات المتعلقة بذات الموضوع، وهذا شائع في التأويل، حيث تبين الآيات بعضها البعض، حيث لا يمكن للتأويل أن يكون مكتملا، إلا إذا تم النظر والتدبر في كل الآيات التي تشكل وحدة موضوعية واحدة، كبعض الآيات المتعلقة بأحكام الزواج و

---

[1]) وقد اشتهر عن الفاروق عمر بن الخطاب أنه كان محدثا، أي ملهما، يقول الرأي موافقا لما ينزل به القرآن. ونور العقل لا يمنع أن يمتزج به نور الإلهام ، ونور الإلهام لا يمنع أن يمتزج به نور العقل، فقد يكون نور الإلهام نورا إلهاميا محضا، وقد يكون ممتزجا بنور العقل ، وكذلك نور العقل قد يكون نورا عقليا محضا، وقد يكون ممتزجا بنور الإلهام . وقد يتوارد النوران على القلب بحسب حال صاحبه . والتأويل بنور العقل يغلب عليه الاستعانة بقواعد اللغة وأساليبها وتراكيبها، ومقاصد النصوص ، ومناسبة بعضها البعض، وترابطها الموضوعي. أما التأويل بنور الإلهام فيتعدى ذلك لكشف أسرار مبهرة مكنونة في أعماق النصوص، تؤيد بدلائل إلهامية ، حجبها الله ، إلا عن من اختصهم بمزيد عطاء وعظيم اعتناء، أولئك هم الراسخون في العلم اللدني.

[2]) هذا النوع من التأويل العلمي، يقتضي بحثا مستقلا لبيان ما ينبغي أن ينضبط به من قواعد علم الأصول وعلم التفسير . فتأويل آيات القرآن عبر بعض الظواهر و الدلائل والنظريات العلمية، ينبغي أن يكون في نطاق ما وضعه علماء الشريعة من قواعد وضوابط تتعلق بتأويل وتفسير آي القرآن.

الطلاق و الميراث والجهاد و غيرها من آيات الأحكام، وكذلك بعض الآيـــات المتعلقـــة بالقصص القرآني، وخلق السموات والأرض، وغيرها. ([1])

والتأويل الكلي قد يكون مصدره نور العقل وقد يكون مصدره نور الإلهام، وقـــد يكـــون مصدره كلاهما معا.

أما التأويل الجزئي، فيتعلق بتدبر وتحليل آية واحدة، هـــي فـــي ذاتهـــا تـــشكل وحـــدة موضوعية مستقلة ، التدبر فيها يسفر عن حقيقة متكاملة، لا يلزم لبيانها مزيد نظر فـــي آيات أخرى، وإن كان النظر في آيات أخرى، قد يدعم تلك الحقيقة ولا يثبتها لمن يقـــوم بالتأويل.

[1]) وهذه الصوره من التأويل تتبدى في تخصيص العام، أو تقييد المطلق، أو حمل اللفظ على المجاز لا الحقيقة، أو نسخ اللاحق للسابق، أو غير ذلك، وهذا لا يتأتي إلا إذا نظر من يقوم بعملية التأويل نظرة كلية في كل النصوص المتعلقة بذات الموضوع ، لذا هذا التأويل نعتبره كليا لكونه نظر في كل أفراد موضوع التأويل من النصوص.

خاتمة الفصل الثاني

حيث تعرضت فيه تفصيلا لبيان حقيقة وكنه محل التأويل، وهو آي القرآن، عبر نظـــرة تحليلية في نصوصه المباركة، تلك المتعلقة بوصفه بأنـــه نـــور، وعرضـــت لأقـــوال المفسرين وأهل العلم حولها، والرأي الذي أرى ودلائله، ثم تعرضت تفـــصيلا لبيـــان حقيقة وجوهر التأويل ذاته، بناء على ما انتهيت إليه مـــن حقيقـــة جـــوهر آي القـــرآن المجيد، مدعما قولي بالأدلة السمعية والعقلية، ثم بينت أنواع التأويل وفقا لعدة معـــايير.

و قد آل النظر والتحليل ، إلى استنباط أهم النتائج التالية:

١-**أن كل نور خلقه الله تعالى**، سواء كان نورا ماديا أو نورا معنويـــا، متراكـــب مـــن أربعة أنوار ،كما في المثل الذي ضربه الله تعالى في الأية (٣٥) من ســـورة النـــور: **نور المصدر، وهو زيت المصباح** – المستمد من شجرة زيتونـــة مباركـــة –، **ونـــور المصباح ذاته**، **ونور الزجاجة** التي فيها المصباح، **ونور المـــشكاة** التى فيها المـــصباح بزجاجته، فهي أربعة أنوار. (١)

٢-نور القرآن أربعة أنوار : نور مصدره أي **نور الوحي الإلهي** – وهو يقابـــل فـــي المثل نور زيت شجرة الزيتون – **ثم نور معناه** –وهو يقابل في المثل نور المـــصباح –

---

(١) وقع في خاطري عند صياغة هذه النتيجة: أن لفظ الجلالة مكون من أربعة أحرف، وآية: بسم الله الرحمن الرحيم من أربع كلمات ، وأن عدد آيات سورة الإخلاص أربع، وسورة قريش أربع، وسورة الشرح ثمانية –ضعف الأربع – وأن زوايا وحوائط الكعبة أربعة، وأن العرش يحمله أربعة من الملائكة ، ويوم القيامة ثمانية – ضعف أربعة – وأن أقصى عدد للركعات أربع، وأقلها اثنتان –نصف الأربع – وأن أركان الإسلام التي تقتضي جهدا بدنيا أربعة: الصلاة ، الحج ، الزكاة، الصوم ، وأن عدد تكبيرات الآذان الأولى أربع ، وأن بعثة الأنبياء تكون عند اكتمال العقد الرابع، وبلوغ الأشد كذلك في العقد الرابع، وأن النبي صلى الله عليه وسلم كلف بالجهر بالدعوة في مطلع العام الرابع من بعثته الشريفة، وأن الخلفاء الراشدين الأولين أربعة ، وأن الأئمة المجتهدين المشهور علمهم بين الناس أربعة: أبو حنيفة، مالك، الشافعي، أحمد بن حنبل.

الأدلة المتفق عليها بين جمهور العلماء أربعة: الكتاب، السنة، الإجماع والقياس. وواضح الدلالة أربعة: ظاهر ، نص، مفسر ومحكم ، وغير واضح الدلالة أربعة: خفي، مشكل، مجمل ومتشابه. كما في مصطلح الأحناف. أن المقاصد الضرورية الخمسة، منها **أربع** محل الحفظ فيها وما يقتضيه معنويا ماديا وهي: الدين، النفس، العرض ، العقل، أما حفظ المال فلا يتصور إلا أن يكون الحفظ ماديا لأن محله مادي وهو المال.

أقصى عدد لجمع الزوج لأزواجه أربع، عدة المرأة المتوفي عنها زوجها أربعة أشهر وعشرا .

زوايا الأرض واتجاهاتها الأصلية أربعة، وأول سعي الطفل على أربع، وأطراف الإنسان أربعة ، والأصابع المتجاورة في كف الإنسان أربعة،، والحواس المركبة في الوجه أربع، ومعظم الدواب تمشي على أربع، وغير ذلك مما يعلمه الله تعالى، فليس بمستغرب أن يكون كل نور مركب من أربعة أنوار، كما صرحت الآية.

ثم نور لفظه – وهو يقابل في المثل نور الزجاجة – **ثم نور مقصده**، وهو يقابل في المثل نور المشكاة.

أنوار بعضها من بعض، نور على نور. وهذه الأنوار تشع أنوارا من جنسها في قلوب العارفين والعلماء، بإذن الله تعالى، فيهتدون بها إلى الصائب من التأويلات والمعاني.

٣- **أن نور التأويل نوع من جنس** نور الهداية العامة –وهو الجنس العام لكل نور معنوي – وهو في حق **العابد** توفيق من الله للطاعة وأسبابها، وفي حق **العالم** إلهام بأسرار الشرع وأحكامه، وتأويل لآي القرآن.

٤- **أن نور الهداية كجنس عام** تتفرع منه أنواع مثل: نور الإيمان، نور العلم، وغيرها، ونور العلم يتفرع منه نور الحكمة، ونور الحكمة حالة خاصة متفردة من العلم، ونور الحكمة يتفرع منه نور التأويل والبيان لآي القرآن . **إذن نور التأويل حالة خاصة جدا من نور الحكمة، وهي أعلى مراتب الحكمة، لكونها حكمة محلها آي القرآن.**

٥- **ينقسم التأويل إلى أربعة أنواع:** فبحسب طريقته، ينقسم إلى تأويل أصولي وتأويل تفسيري ، وبحسب مصدره ينقسم إلى: تأويل وهبي أي محض إلهامي، وتأويل كسبي أي عقلي ، وبحسب محله ينقسم إلى: تأويل يرد على الآيات المتعلقة بأعمال العباد وأخلاقهم وعقيدتهم وقصصهم وأحوالهم، وتأويل يتعلق بالآيات المتعلقة بالخلق والإعجاز ، وبحسب نطاقه ينقسم إلى: تأويل كلي يتعلق بموضوع معين متكامل تناولته آيات عدة مجتمعة ، وتأويل جزئي يتعلق بآية بعينها، إما لكون هذه الأية تعد بذاتها ذات معنى مترابط متكامل، وإما لكونها تتضافر مع غيرها في بيان معنى معين

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على سيد المخلوقات، نبينا محمد، قدوة الأنام ومصباح الظلام، وخير ختام لرسل الله الملك العلام، وعلى آله الطاهرين الأعلام، وأصحابه الطيبين ذوي الأفهام، وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم البعث والقيام،

ثم أما بعد،،،،

أتممت بعون الله تعالى وفضله هذا البحث الذي **هدف** بوجه عام إلى بيان كنه التأويل وحقيقة جوهره، ومعرفة أسراره وأنواره، وطبيعة معدنه، فضلا عن بيان جوهر وحقيقة أنوار آي القرآن، حيث لا يعرف التأويل إلا ببيان محله، ومحله القرأن العظيم، وهو هدف أولي ممهد لهدف آخر، ألا وهو بيان نطاق تأويل الأصوليين من نطاق تأويل المفسرين، والعلاقة بينهما، والضوابط والموازين التي تحكم تحديد وبيان كل نطاق.

وقد تعددت **دواعيه وأهميته** منها في المنظور لنا: أنه معين بإذن الله تعالى للباحث والمجتهد في الوقوف على حقيقة التأويل ومحله، ومعرفة منازل النص القرآني من التأويل، ومن ثم تحديد طبيعة القواعد الملائمة لاستقراء النص وتحليله، وهل هى قواعد علم الأصول أم قواعد علم التفسير ؟ أم كلاهما ؟ كما أن ذلك مهم للغاية، **لبيان كيف يمكن للتأويلين الأصولي والتفسيري أن يتعاونا معا**، بحيث يهتدى ويستفيد الباحث والمجتهد من هذا التعاون في عملية الاستنباط في النص ، ومن ثم الوقوف على مراد النص ومغزاه، ومن ثم معرفة ما قد يكون قد تضمنه من أحكام وعلل ومقاصد شرعية.

وقد تناولت موضوع البحث في فصلين:

أولهما: بعنوان: التأويل تأصيلا وتحليلا:

حيث قمت باستقراء وتحليل وتأصيل، لفظة تأويل في آي القرآن، حيث تم عرض أقوال أهل العلم وأدلتهم حولها، والرأي الذي أرى، وشواهده وقرائنه، ثم عرجت على تحليل وتأصيل لفظة تأويل، ثم بيان التأويل اصطلاحا لدى أهل العلم من المفسرين والأصوليين . ثم ختمته بحصر أهم النتائج، وبيانها كالتالي:

أولا:أن جل معاني التأويل اللغوية تدور حول رد الشئ لشئ آخر،أي نسبته إليه لعلاقة ما بينهما.

ثانيا: أن كلمة تأويل حيثما وردت في القرآن الكريم، لا تخرج عن معناها اللغوي كثيرا، فهي وبالنسبة للكلام، تدل بوجه عام على رد اللفظ للمعنى المقصود منه، سواء كان المعنى قريبا أو بعيدا، وهذا الرد لا يتأتى إلا عبر تدبر اللفظ، أو الاستنباط فيه، لمعرفة معانيه البعيدة، ومقاصده الدفينة.

وتأويل الكلام أو حتى تأويل الرؤيا والوقائع (١)، يقتضي غالبا، جهدا واستنباطا بل فتحا وإلهاما، للوقوف على حقيقة المعاني العميقة والمرامي المقصودة.

ثالثا: أن التأويل كما ورد في القرآن، لا يعن رد اللفظ لمعناه المقصود وحسب، بل قد يعني وقوع المعنى المخبر به، في عالم الغيب أو عالم الشهادة .

رابعا: تحليل لفظة تأويل يقتضي القول أن إرجاع أو رد اللفظ لمعناه المقصود، هو من قبيل رد الفرع للأصل، فالمعنى أصل لوجوده قبل اللفظ ، واللفظ فرع لكونه نشأ بناء على المعنى، والتأويل هو رد الفرع – أي اللفظ – لأصله، أي لمعناه، ثم أن وقوع المعنى في الواقع هو نوع أيضا من التأويل، لكونه نوع من الرد والإرجاع، ولكنه ليس إرجاع لفظ لمعنى، ولكنه إرجاع معنى لحقيقة واقعه، أي تجسيد المعنى في عالم الواقع المقدر له، أي تجسيد المعنى في صورة وقائع ملموسة.

خامسا: البين من أقوال جمهور المفسرين أن التفسير بيان المعنى على وجه القطع، إما لغة، وإما سماعا، أى من الشارع نفسه، أما التأويل لديهم: فهو استنباط سائغ لمن اختصهم الله تعالى، بكشف أنوار القرآن، و تدبر ما فيه من أسرار وبيان.

سادسا: البين من أقوال جمهور الأصوليين أن التأويل الأصولي: هو تغليب معنى مرجوح للفظ، صار بالدليل السائغ راجحا، على معنى متبادر من ظاهر اللفظ.

سابعا: أن كلا من التأويل الأصولي والتأويل التفسيري، من معدن واحد، من حيث الأصل ، لكن التأويل التفسيري أبعد عمقا وأرحب نطاقا، وأشد أنوارا وأسرارا.

---

(١) تأويل الرؤيا – الأحاديث –كتأويل يوسف عليه السلام، وتأويل الوقائع كتأويل الخضر لأفعاله الثلاثة، من خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار، وقد سبق بيان ذلك تفصيلا، في صدر المبحث الأول.

وأما الفصل الثاني: فبعنوان: **حقيقة التأويل وأنواعه :**

حيث تعرضت فيه تفصيلا لبيان حقيقة وكنه محل التأويل، وهو آي القرآن، عبر نظرة تحليلية في نصوصه المباركة، تلك المتعلقة بوصفه بأنه نور، وعرضت لأقوال المفسرين وأهل العلم حولها، والرأي الذي أرى ودلائله، ثم تعرضت تفصيلا لبيان حقيقة وجوهر التأويل ذاته، بناء على ما انتهيت إليه من حقيقة جوهر آي القرآن المجيد، مدعما قولي بالأدلة السمعية والعقلية، ثم بينت أنواع التأويل وفقا لعدة معايير.

وقد ختمته بعدة نتائج، هي كالتالي:

١-**أن كل نور خلقه الله تعالى**، سواء كان نورا ماديا أو نورا معنويا، متراكب من أربعة أنوار ،كما في المثل الذي ضربه الله تعالى في الأية (٣٥) من سورة النور: **نور المصدر، وهو زيت المصباح** – المستمد من شجرة زيتونة مباركة –، **ونور المصباح ذاته**، **ونور الزجاجة** التي فيها المصباح، **ونور المشكاة** التى فيها المصباح بزجاجته، فهي أربعة أنوار. (١)

٢-نور القرآن أربعة أنوار : نور مصدره أي **نور الوحي الإلهي** – وهو يقابل في المثل نور زيت شجرة الزيتون – **ثم نور معناه** –وهو يقابل في المثل نور المصباح –

---

١) وقع في خاطري عند صياغة هذه النتيجة: أن لفظ الجلالة مكون من أربعة أحرف، وآية: بسم الله الرحمن الرحيم من أربع كلمات ، وأن عدد آيات سورة الإخلاص أربع، وسورة قريش أربع، وسورة الشرح ثمانية –ضعف الأربع – وأن زوايا وحوائط الكعبة أربعة، وأن العرش يحمله أربعة من الملائكة ، ويوم القيامة ثمانية – ضعف أربعة – وأن أقصى عدد للركعات أربع، وأقلها اثنتان – نصف الأربع – وأن أركان الإسلام التي تقتضي جهدا بدنيا أربعة: الصلاة ، الحج ، الزكاة، الصوم ، وأن عدد تكبيرات الآذان الأولى أربع ، وأن بعثة الأنبياء تكون عند اكتمال العقد الرابع، وبلوغ الأشد كذلك في العقد الرابع، وأن النبي صلى الله عليه وسلم كلف بالجهر بالدعوة في مطلع العام الرابع من بعثته الشريفة، وأن الخلفاء الراشدين الأولين أربعة ، وأن الأئمة المجتهدين المشهور علمهم بين الناس أربعة: أبو حنيفة، مالك، الشافعي، أحمد بن حنبل.

الأدلة المتفق عليها بين جمهور العلماء أربعة: الكتاب، السنة، الإجماع والقياس. وواضح الدلالة أربعة: ظاهر ، نص، مفسر ومحكم ، وغير واضح الدلالة أربعة: خفي، مشكل، مجمل ومتشابه. كما في مصطلح الأحناف. أن المقاصد الضرورية الخمسة، منها **أربع** محل الحفظ فيها وما يقتضيه معنويا ماديا وهي: الدين، النفس، العرض ، العقل، أما حفظ المال فلا يتصور إلا أن يكون الحفظ ماديا لأن محله مادي وهو المال.

أقصى عدد لجمع الزوج لأزواجه أربع، عدة المرأة المتوفي عنها زوجها أربعة أشهر وعشرا .

زوايا الأرض واتجاهاتها الأصلية أربعة، وأول سعي الطفل على أربع، وأطراف الإنسان أربعة ، والأصابع المتجاورة في كف الإنسان أربعة،، والحواس المركبة في الوجه أربع، ومعظم الدواب تمشي على أربع، وغير ذلك مما يعلمه الله تعالى، فليس بمستغرب أن يكون كل نور مركب من أربعة أنوار، كما صرحت الآية.

ثم نور لفظه – وهو يقابل في المثل نور الزجاجة – **ثم نور مقصده**، وهو يقابل في المثل نور المشكاة.

أنوار بعضها من بعض، نور على نور. وهذه الأنوار تشع أنوارا من جنسها في قلوب العارفين والعلماء، بإذن الله تعالى، فيهتدون بها إلى الصائب من التأويلات والمعاني.

٣- **أن نور التأويل نوع من جنس** نور الهداية العامة –وهو الجنس العام لكل نور معنوي – وهو في حق **العابد** توفيق من الله للطاعة وأسبابها، وفي حق **العالم** إلهام بأسرار الشرع وأحكامه، وتأويل لآي القرآن.

٤- **أن نور الهداية كجنس عام** تتفرع منه أنواع مثل: نور الإيمان، نور العلم، وغيرها، ونور العلم يتفرع منه نور الحكمة، ونور الحكمة حالة خاصة متفردة من العلم، ونور الحكمة يتفرع منه نور التأويل والبيان لآي القرآن . **إذن نور التأويل حالة خاصة جدا من نور الحكمة، وهي أعلى مراتب الحكمة، لكونها حكمة محلها آي القرآن**، كلام الله تعالى، الرحيم الرحمن، الحنان المنان.

٥- **ينقسم التأويل إلى أربعة أنواع**: فبحسب طريقته، ينقسم إلى تأويل أصولي وتأويل تفسيري ، وبحسب مصدره ينقسم إلى: تأويل وهبي أي محض إلهامي، وتأويل كسبي أي عقلي ، وبحسب محله ينقسم إلى: تأويل يرد على الآيات المتعلقة بأعمال العباد وأخلاقهم وعقيدتهم وقصصهم وأحوالهم، وتأويل يتعلق بالآيات المتعلقة بالخلق والإعجاز ، وبحسب نطاقه ينقسم إلى: تأويل كلي يتعلق بموضوع معين متكامل تناولته آيات عدة مجتمعة ، وتأويل جزئي يتعلق بآية بعينها، إما لكون هذه الأية تعد بذاتها ذات معنى مترابط متكامل، وإما لكونها تتضافر مع غيرها في بيان معنى معين.

أهم المصادر والمراجع

أولا: القرآن الكريم .

ثانيا كتب الأحاديث:

١-البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري،، صحيح البخـاري، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط ١٤٣١ هـ .

٢-الترمذي: أبو عيس محمد بن عيسى ابن الضحاك الترمذي، سنن الترمذي، تحقيق رائد صبري، دار الحضارة للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤٣٦ هـ .

٣-القشيري: أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري ، صحيح مسلم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٣٦ هـ.

ثالثا: المراجع الأخرى:

١-ابن عربي: محي الدين بن عربي، تفسير ابن عربي، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤٢٢ هـ.

٢-ابن فارس: أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، مقاييس اللغة، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٩ هـ .

٣-ابن النجار: محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن علي الفتوحي الحنبلي، المعروف بابن النجار، شرح الكوكب المنير، المسمى بمختصر التحرير ، أو المختبر المبتكر شرح المختصر في أصول الفقه، تحقيق الدكتور/ محمد الزحيلي والدكتور/ نزيه حماد ، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٤١٣.

٤-البغوي: أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، تفسير البغوي (معالم التنزيل)، دار ابن حزم، بيروت، ١٤٢٣.

٥-البيضاوي: ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، المعروف بتفسير البيضاوي، دار صادر، بيروت، ط١، ٢٠١١.

٦-الجويني: أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني، متن الورقات، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة، ١٤٢٩.

٧-الخضري: الشيخ محمد الخضري، أصول الفقه، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٤ هـ .

٨-خلاف: الشيخ عبد الوهاب خلاف، علم أصول الفقه، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٣ هـ.

٩-الذهبي: محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون ، دار الحديث، القاهرة، ط ١٤٣٣ هـ.

١٠-الرازي: محمد الرازي، تفسير الرازي، المشتهر بمفاتح الغيب، دار الفكر، بيروت، ١٤٠١ هـ .

١١-الزركشي: بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، دار التراث، القاهرة، ١٤٠٤.

١٢-**الزركشي:** بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي، البحر المحيط في أصول الفقه، طبعة وزارة الأوقاف بدولة الكويت، ١٤١٣ هـ .

١٣-الزمخشري: أبي القاسم جار الله محمود بن عمر، الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف، دار المعرفة، بيروت، ١٤٣٠هـ .

١٤-سانو: قطب مصطفى سانو، الاجتهاد في النص في الفكر الأصولي، دون ذكر دار للنشر، ١٤٣٤ هـ .

١٥-السيوطي: جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ١٤٢٩.

١٦-الشوكاني: محمد بن علي الشوكاني، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، تحقيق أبي حفص سامي بن العربي، دار الفضيلة، الرياض، ١٤٢١.

١٧-العسقلاني: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تحقيق شعيب الأرنؤوط، وعادل مرشد، دار الرسالة العالمية، دمشق، ط١، ١٤٣٤ هـ.

١٨-الغزالي: أبو حامد محمد الغزالي، المستصفى من علم الأصول، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٩.

١٩-فراج: أحمد فراج حسين، أصول الفقه الإسلامي، المكتب العربي للطباعة والنشر، مصر، ١٤٠٦ هـ .

٢٠-الفيروز آبادي: أبي طاهر بن يعقوب الفيروز آبادي، تنوير المقباس تفسير ابن عباس ، دار الفكر، بيروت، ١٤٢١ هـ.

٢١-القرطبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق د. عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٣٠،

٢٢-الألوسي: شهاب الدين السيد محمود الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، إدارة الطباعة المنيرية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون سنة نشر.

٢٣-**المحلى والسيوطي:** جلال الدين المحلى و جلال الدين السيوطي، تفسير الجلالين، الـدار العالمية للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤٣٤ هـ .

٢٤-**المنتخب:** المنتخب في تفسير القرآن الكريم، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة القرآن والسنة، القاهرة، ط٤، ١٣٩٥ هـ.

٢٥-**النسفي:** حافظ الدين النسفي أبو البركات عبد الله بن أحمد، كشف الأسرار، شرح المصنف على المنار ، مع شرح نور الأنوار على المنار ، للشيخ حافظ أحمد بن أبي سعيد الحنفي، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون سنة نشر.